

جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم والتعليم الفنى
الإدارة المركزية لتطوير المناهج

طُمُوحُ جَارِيَةٍ

شَجَرُ الدُّرِّ

للصف الثالث الإعدادى

العام الدراسى ٢٠٢٣- ٢٠٢٤م

تأليف

إبراهيم محمد حسن الجمل

نهضة مصر
للنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لا يخفى على أحد دور المرأة فى المجتمع، دورها فى إرساء دعائمه، وتثبيت أسسه، دورها فى السلم والحرب. ففى السلم تبنى وتعمر وتنشئ الأجيال على أسس تربوية قويمة، وتغرس فيهم العزة والطموح.

وفى الحرب تقف من وراء الرجل ردءًا له تشد من أزره، وتعينه حتى يتم له النصر. وقد حققت فى هذا المجال بطولات خالدة، مازالت قدوة للشباب، وزادًا للمثقفين.

وفى هذا الكتاب نقدم رائدة من نسائنا الخالدات، شقت طريقها فى الصخر، وصنعت مجدها بعزيمتها، وقوة إرادتها، إنها قصة «شجر الدر»(*).

المؤلف

(*) ورد اسم «شجرة الدر» بالتاء فى بعض المراجع كما ورد «شجر الدر» بدون التاء. المرجع: «الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام» للدكتور: سعيد عبدالفتاح عاشور.

تقـــديـم

إلى أبنائنا وبناتنا طلاب الصف الثالث الإعدادى وطالباته نقدم لكم قصة تجسد قوة الإرادة وصلابة العزيمة ونُبل الأخلاق، وتبرز أثر ذلك فى تحقيق طموح الإنسان مهما كان صعب المنال، فهذه فتاة لا تملك من أمرها شيئًا قد عاشت حياتها الأولى جارية تُباع وتُشترى، ولم يقف رق الجارية، ولا ضعف المرأة أمام طموحها، فقد عملت على تحقيق أهدافها متجاوزة كل الصعاب والعقبات بالرغم من شدتها، ومتسلحة بعزيمة لا تضعف، وإرادة لا تلين. ولم يكن يعوزها الرأى السديد حين تحتاج إليه فقد كانت لها رؤية مستقبلية للأحداث، تستشعرها بها قبل وقوعها، وتضع لها الحلول، فإذا وقعت تجاوزتها فى يسر وسهولة.

وبهذا تكون قد جمعت صفات القيادة الناجحة؛ مما حقق لها طموحها وساعدها على نيل أهدافها حيث وصل زوجها إلى حكم مصر كما كانت تتمنى، وبعد أن تحقق لها ما أرادت لم

تهن عزيمتها، ولم تفتر همتها، واستمرت عونًا لزوجها، وبرزت وطنيتها وبُعد نظرها، وصلابة إرادتها فى مواقف حاسمة؛ مما جنب مصر كثيرًا من الأخطار، ووصل بها إلى بر الأمان، وحقق لها النصر على الأعداء.

إنها قصة «طموح جارية – شجر الدر» نقدمها لكم أبنائى وبناتى راجين أن تكون لكم قدوة، ومثلاً أعلى.

والله الموفق

محمد البدوى أحمد القرشى



(١) دعـــــاء

ارتقى المؤذن درجات المئذنة العالية، ثم خرج إلى شرفتها المستديرة، وأخذ يشق بصوته الرخيم سكون الليل، قبيل الفجر يتوسل إلى اللَّه، ويدعوه أن يفرج الكرب، ويدفع البلاء، ويرد عن أمة العرب ما يحيق بها من بلاء الفرنج، وشرور التتار.

وقد جلس المصلون فى المسجد خاشعين لله، متجهين إلى القبلة، يؤمنون على دعائه.

كما يسألون ربهم المجيب أن يلهم العرب الصواب، وينبههم إلى ما يحيط بهم من الأخطار، وأن يعودوا إلى وحدتهم؛ ليتمكنوا من تطهير أرضهم من الفرنج الذين دنسوها، وما فعلوا ذلك إلا حين رأوا ضعف العرب؛ بسبب نزاع أمرائهم على الملك، وتطاحنهم على السلطان.

وفى شرفة القصر الكبير القريب من المسجد، وقفت فتاة فى مقتبل الشباب ونضرته تستمع إلى صوت المؤذن، رافعة كفيها إلى السماء تتوسل إلى اللَّه وترجوه أن يجيب دعاء المؤمنين، وأن ينتقم من الطغاة الظالمين.



المؤذن يتوسل إلى اللّـه أن يفرج الكرب، ويرفع البلاء
والفتاة تؤمن على دعائه.

ثم أخذت تناجى ربها، وتقول:

حكمت علىَّ يا رب أن أكون جارية تباع وتشترى، بعد أن مزق التتار شمل قومى، وقوضوا ملكهم، وأزالوا سلطانهم، ثم أدركتنى رحمتك، حين اشترانى رجل كريم أحبنى، ووثق بى، هو الأمير الصالح نجم الدين أيوب، - ابن الملك الكامل حاكم مصر - وأعطيتنى حريتى حين رزقتنى منه بابنى خليل، فأصبحت بذلك من الحرائر، وتخلصت من الرق.

فيارب احفظ ابنى، وسلمه لى، وساعد زوجى الصالح نجم الدين أيوب على أن يعود إلى مصر سلطانًا عليها.

ولما فرغ المؤذن من توسلاته، وانتهى من أذانه، دخلت القصر، وقامت إلى صلاتها، فأدتها، ثم جلست على أريكتها، وأطلقت العنان لخيالها، وحدثت نفسها عن مصر، وقالت:

وهل ينسى أحد مصر؟ ما دخلها أحد وأحب أن يفارقها، وما غاب عنها إنسان، وزايله خيالها.

ومن ذا الذى لا يشتاق إلى النيل، وهو يختال بين شاطئيه، كأنه شعاع من لؤلؤ على بساط من سندس.

ومن ذا الذى لا يحب شعب مصر، فهو شعب لطيف ودود حليم كريم.

إن من يحكم مصر يستطيع أن يفعل الكثير، فمصر قوة هائلة بشعبها وجيشها، يخشى العدو بأسها، وبجيشها وجيش الشام نستطيع أن نصد خطر الفرنج، وأن نهزم التتار.

ولكن كيف السبيل إلى حكم مصر؟ إن دون ذلك عقبات كثيرة، وأكبر عقبة تتمثل فى سوداء بنت الفقيه زوجة السلطان الكامل حاكم مصر والشام، لقد استطاعت أن تجعله يخلع ابنه الصالح نجم الدين أيوب من ولاية العهد، وأن يولى مكانه ابنها سيف الدين، وهو أصغر من زوجى وأقل منه كفاءة.

ولم تكتف بإقصاء زوجى عن ولاية العهد، بل دفعت أباه السلطان الكامل أن يقصيه عن مصر، حيث جعله أميرًا على الثغور فى الشام فى مواجهة الأعداء؛ ليخلو الجو لها، ولابنها سيف الدين.

وكيف السبيل إلى حكم مصر؟ وهناك عقبات أُخَر تتمثل فى التتار الذين يسرعون إلينا فى ضراوة؛ ليكتسحوا البلاد كما اكتسحوا غيرها، وفى الروم الذين لا تهدأ جيوشهم، وفى أمراء بنى أيوب وهم متنازعون متباغضون، يعمل كل منهم لنفسه، غافلًا عما حوله، ناسيًا ما يحيط به من الوحوش الضارية، لا يعرف أن الذئب يأكل من الغنم القاصية.

العقبات كثيرة، ولكن الأمل غال، يستحق أن نعمل لتحقيقه، وأن نضحى فى سبيله.

استغرقتها هذه الفِكَر، ولم تشعر إلا وقد أشرقت الشمس وغمر ضوؤها المكان، ودبت الحركة فيه، ثم سمعت صوتًا يناديها فى اهتمام قائلًا:

مولاى الأمير فى انتظارك يا سيدتى! فهبت واقفة، ثم سارت متهادية، باسمة الثغر، مشرقة المحيا إلى حيث الأمير الذى صاح بها فرحًا يحييها تحية الصباح:

أصبحت بخير يا شجر الدر، بل أحلى من شجر الدر، بل أحلى من الدر كله.

ثم جلسا يتناجيان، وحدثته عما دار فى خاطرها منذ أدت صلاة الفجر، وعن أملها فى حكم مصر، وعن العقبات التى تحول دون ذلك.

– فقال لها: لقد نسيت عقبة مهمة.

– ما هى؟

– يعوزنا جيش قوى؛ نواجه به الأعداء، ونحقق به الآمال.

– هذا أمر سهل ويسير. أنسيتَ قومى من الخوارزمية الذين كانوا أتباع السلطان جلال الدين الخوارزمى، وهم محاربون أقوياء؟ سوف أعمل على توثيق علاقتك بهم، وسوف يكونون عونًا لك وقت الحاجة.

– شكرًا لك يا شجر الدر، فأنت خير عون لى فى هذه الحياة.

مناقشة الفصل الأول

-١-

«ارتقى المؤذن درجات المئذنة العالية، ثم خرج إلى شرفتها المستديرة، وأخذ يشق بصوته الرخيم سكون الليل قبيل الفجر، يتوسل إلى اللّـه، ويدعوه أن يفرج الكرب، ويرفع البلاء، ويرد عن أمة العرب ما يحيق بها من بلاء الفرنج، وشرور التتار».

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلى:

- مرادف «الرخيم»: (السهل – العالى – القوى)
- مضاد «سكون»: (صياح – جلبة – حركة)
- مفرد «شرور»: (شرير – شر – شرارة)

(ب) قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

بين علاقة ما ورد فى الفقرة بالآية الكريمة.

(جـ) العرب أمة مستهدفة فى ماضيها، وحاضرها. وضح ذلك.

(د) هل يكفى أن ندعو اللّـه كى يدفع عنا البلاء؟ وضح ما تقول.

-٢-

«ولما فرغ المؤذن من توسلاته، وانتهى من أذانه دخلت القصر، وقامت إلى صلاتها فأدتها، ثم جلست على أريكتها،

وأطلقت العنان لخيالها، وحدثت نفسها عن مصر، وقالت: وهل ينسى أحد مصر؟».

(أ) حدد الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

- مرادف «فرغ»: (انصرف – انتهى – انقطع)
- جمع «نفس»: (أنفاس – نفائس – نفوس)

(ب) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾.

بين كيف طبقت شجر الدر ما تدعو إليه الآية الكريمة.

(جـ) ما الغرض البلاغى للاستفهام فى الفقرة؟

(د) أحبت شجر الدر مصر وشعبها. بم عللت ذلك؟

-٣-

«ولكن. كيف السبيل إلى حكم مصر؟ إن دون ذلك عقبات كثيرة، وأكبر عقبة تتمثل فى سوداء بنت الفقيه، زوجة السلطان الكامل حاكم مصر والشام».

(أ) هات المطلوب لما يلى، وضع ما تأتى به فى جملة مفيدة:

- جمع «السبيل»: ....
- مضاد «كثيرة»: ....
- مؤنث «أكبر»: ....

(ب) من المستَفْهِم فى الفقرة؟ وما الغرض من الاستفهام؟

(جـ) كيف كانت سوداء بنت الفقيه عقبة فى سبيل حكم مصر؟

(د) خُلق الأنانية أسوأ ما يبتلى به إنسان. وضح ذلك..

هل تصدق هذه المقولة على أمراء بنى أيوب؟ ولماذا؟

-٤-

«استغرقتها هذه الفِكَر، ولم تشعر إلا وقد أشرقت الشمس، وغمر ضوؤها المكان، ودبت الحركة فيه، ثم سمعت صوتًا يناديها فى اهتمام قائلاً: مولاى الأمير فى انتظارك يا سيدتى، فهبت واقفة، ثم سارت متهادية، باسمة الثغر، مشرقة المحيا إلى حيث الأمير...».

(أ) تخير الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

- «تشعر» مرادفها: (تدرك - تعلم - تحس)
- «اهتمام» مضادها: (غضب - إهمال - نسيان)
- «الفِكَر» مفردها: (الفكْر - الفكرة - التفكير)

(ب) كانت شجر الدر جارية طموحة. استدل على ذلك من الفصل الأول.

(جـ) ما الفِكَر التى استحوذت على فكر شجر الدر؟

(د) من الأمير؟ وما علاقته بشجر الدر؟

(هـ) «وراء كل عظيم امرأة عظيمة».

وضح ما تهدف إليه هذه المقولة فى ضوء الحوار الذى دار بين الأمير، وشجر الدر.

(و) عبر عن مضمون الفصل الأول بأسلوبك فى حوالى عشرة أسطر.

(٢) مفـــاجـــأة

وثَّقَتْ شجر الدر العلاقة بين زوجها الصالح نجم الدين، وبين قومها الخوارزمية، وأصبحوا عونًا قويًّا له فى حروبه.

وبينما كان نجم الدين منهمكًا فى مواجهة الأعداء على أحد الثغور، أقبلت إليه الأنباء تعلن وفاة أبيه الكامل فى الثانى عشر من شهر رجب سنة ٦٣٥ من الهجرة، واتفاق الأمراء على:

- تولية سَيف الدين بن سَوداء مُلْكَ مصر والشام، باسم العادل.

- وأن ينوب عنه فى دمشق ابن عمه الجواد مُظَفَّر الدين يونس بن مَوْدُود.

- أما نجم الدين فيبقى كما هو أميرًا على الثغور بالشرق.

وقع هذا الخبر على نفسه وقع الصاعقة، ليس لأنه فقد ملك مصر، ولكن لما ينتظر هذه الدولة المترامية الأطراف من تفرق وتمزق، فهؤلاء الأمراء الأيوبيون فى مصر سيهبون مسرعين؛ ليحقِّقوا أطماعهم، ويمزقوا الدولة بينهم، منتهزين ضعف

المَلك الجديد، وضعف الإدارة التى تتولَّى أمره. وسوف يضعف ذلك مصر، ونحن نريدها قوية؛ لنواجه بها الروم والتتار.

ثم أخذ يستعرض جَيشه، وقدرته على مواجهة تلك الصِّعاب، ومُنازَلة هذه الأخطار، ولم ينسَ عدوه اللدود بدر الدين لُؤْلُؤًا أميرَ المَوْصِل، ولا غيره من كل طامع يُعِدُّ للعصيان.

ولما ضاق صدره بهذه الفِكَر، استدعى شجر الدر، فأقبلت مسرعة إليه، وانحنت أمامه تحيِّيه، ثم قالت فى صوت رقيق: «صباحَ الخير يا مولاى!»

– فنظر نجم الدين إليها، ثم قال فى ألم شديد: «أعلمت يا شجر الدر بما كان؟! مُلْك مصر لسيف الدين بن سوداء، ودمشق للجواد مظفر الدين يونس.. وأنا هنا على الثغور. هذا تدبير سَيُودِى[1] بنا جميعًا!

اتفق الأمراء على هذا الإثْم؛ ليَثِبُوا من خلفه إلى مطامعهم القاتلة، وإذا طال بنا الوقت ولم نَصْنعْ شيئًا، مكَّنا الأعداء من رقابنا، وسلَّمناهم مقاتِلنا. وقد رأيتُ أن أنسحب من حصار «الرحبة»، وأدعها؛ حتى أتفرغ لحل هذه المعضلة.

فأسرعت موافقة على الانسحاب قائلة: «خيرًا تصنع يامولاى،

(١) يودى بنا: يهلكنا.

ذلك أفضل من أن نُحصر فى هذا المكان، فما نُمْضِيه فى الحصار دون جَدْوَى، ننفقه فى عمل مُجْدٍ».

وفى أستار الظلام، كان نجم الدين يَمضِى فى طريقه مَبتَعِدًا عن الرحبة، ولم يَبْعد به السير حتى أحس بحركة فى الجيش، وسمع مناديًا يَجْأر بصوته[1] يطلب الإسراع، وإلا وقعوا فى أيدى الخُوارزمية.

وكانوا قد اختلفوا مع نجم الدين؛ بسبب مطامعهم الواسعة، وبَيَّتوا أمرهم على الانتِقاض عليه[2]، فلما سَنَحت لهم الفُرصة[3] انتهزوها وشقوا عصا الطاعة، وأسرعوا إليه عندما علموا بانسِحابه، وهاجموه وتغلَّبوا على رجاله، وهمُّوا بالقبض عليه، فتمكن من الإفلات منهم، وأسرع بما بقى من جيشه إلى «سنجار»؛ ليمتنع بها، تاركًا لهم الأموال والأثقال، ومعه شجر الدر.

ولم يكد يستَقِر فى «سنجار»، حتى كانت جيوش غِياث الدين الرومى تحاصِر «آمد» أعظم مدن ديار بكرٍ على نهر دجلة، وفيها توران شاه بن نجم الدين، وكان بدر الدين لؤلؤ قد أسرع هو الآخر بجيشه، والتف حول قلعة «سنجار» مهددًا

(١) يجأر بصوته: يرفع صوته عاليًا.

(٢) الانتقاض عليه: الخروج عن طاعته.

(٣) سنحت الفرصة: سهلت وتيسرت.

متوعدًا، مقسمًا على ألا ينصرف إلا إذا قبضَ على نجم الدين، وعلى شجر الدر.

فاشتد الأمر بنجم الدين، وجلس يفكر، وشجر الدر بجانبه، ثابِتةٌ لا تفارقها ابتسامتها الواثقة، تحدثه، وتقول له بصوتها الحنون: «لا بأس على مولاى مما يرى! هذا خطبٌ يسير بجانب عزم مولاى وحيلته الواسعة!» فصاح وهو يهتز من شدة ما به قائلاً: لم يبق عزم ولا حيلةٌ يا شجر الدر!

– لم يبق إلا أن يقبض عَلَىَّ بدر الدين، ماذا أصنع يا شجر الدر؟!!

تخلَّى عنى أقاربك الخُوارزمية، وخذَلونى فى ساعة العُسْرة، وصوبوا إلىَّ سهامَهم، وكنت أعول عليهم فى الشدائد!

– فأسرعت بهدوئها قائلة: «أيتفضلُ مولاى، ويتركُ لى تدبير هذا الأمر، فَلَعَلِّى أنجح فيه؟

– «لك ما تريدين يا شجر الدر، فماذا أنت صانعة مع تلك الذئاب العاوية؟!».

– قالت بصوتها الرقيق: «أيأذن لى مولاىَ باستدعاء القاضِى بدر الدين الزِّرزارى قاضِى سنجار؟». فأمر باستدعائه،

فأقبل مسرعًا، ووقف أمامه وحيَّاه، فأذن له بالجلوس، ثم أشار إلى شجر الدر.

– فقالت فى ثبات: «تعلم يا شيخ بدر الدين ما نحن فيه، وقد رأى مولاى نجم الدين رأيًا يُنقذنا ويَفُك أَسْرَنا، ويخلص الناس مما هم فيه من الضَّنْكِ والعَنَت[1] من هذا الحصار، لكن التنفيذَ يحتاج إلى حرصٍ، ودِقة، وجُرأة، ومهارة، وحسن تصرف، ولم يجد مولاىَ من يُحسن القيام به سواك، فماذا ترى؟».

– قال القاضى وهو يضغط كفه اليُسرَى براحته اليُمنَى: «أمر مطاعٌ يا مولاى، نحن أنصارك وأحباؤك ورَهْن إشارتك».

– قالت شجر الدر: «يريد مولاى أن يبعثك إلى الخوارزمية؛ لتستَمِيلهم بلباقتك، وقوة بيانك، وحسن مداخلك، تَعِدُهم وتمنِّيهم، وتمحو من نفوسهم كل شىء يغضبهم من مولاى، ويمنعهم من نجدته».

– فرفع القاضى رأسه، ونظر إلى نجم الدين، فأسرعت تُطمئنه، وتقول فى ثبات:

«لا تخف أيها القاضِى الشجاع، فلن تخرج من باب القلعة الذى يَتَرَصَّد فيه الخطر، بل ستُربط بالحبال، وتُدَلَّى من السور فى حالك الظلام، من مكان بعيد عن عيون الراصدين، أيمكن

(١) الضنك: الضيق. العنت: المشقة.

ذلك أيها القاضى. الذى ملأ الأسماع بقوة جَنانه، ووقوفه بجانب الحق، متحدِّيًا كل تهديد؟!».

– فهوَّم القاضى برأسه، وهو يقول فى صوت خفيض: «يمكن يا مولاى»، ثم مَسَّ لحْيَته بأصابعه، فابتسمت شجر الدر.

– وأسرعت قائلةً: «وتستغنى عن هذه اللِّحيةِ مُؤَقَّتًا يا بدر الدين؛ حتى تنتهى المهمة، فلا يعرفك أحد، ولا يتنبه إليك إنسان».

– فأسرع القاضى موافقًا قائلاً فى سرور:« حلٌّ موفَّق، وفكرة رائعة؟!».

وفى جُنْح الليل[1] والناس نيام، كان القاضى يُدَلَّى من القلعة فى بُطْءٍ وحذَر، حتى بلغ الأرض، ففك الحبال، وانطلق إلى مضارب الخوارزمية، ومعه كتاب من شجر الدر تقول لهم فيه:

«أنتم أهلى وعشيرتى، ومحط آمالى، ومعقِد رجائى، لم يبق لى فى الحياة سواكم، أعيش على أصواتكم، وأحس طعم الحياة بأنفاسكم، فإلى من ألجأ إن تخليتم عنى؟. أإلَى التتار الذين مزقوا دولتنا، وقضوا على زعيمنا، وشتتوا شَمْلَنا، وحرمونا عظمتنا وسُلطاننا، أمْ إلى الفرنج الذين يَعيثون فى البلاد فسادًا، ويُهَددون بإبادتنا؟!

---

(١) جنح الليل: ظلامه واختلاطه أو قطعة منه.



القاضي بدر الدين يدلَّى بالحبال من سور القلعة

أسرعوا إلى ابنتكم، وأدُّوا حق أبُوَّتكم وأُخوتكم، ولكم عند الأمير نجم الدين ما تشاءون، وأنا ضامنة لكل ما تفرضون».

ولم يكد القاضى يبلغ مضارب الخوارزمية، ويتحدث معهم، ويقرأ عليهم الكتاب، حتى دوَّى الأمرُ بالنَّفير[1]، فقفز الفرسان على صهوات جيادهم، وانطلقوا مسرعين إلى سنجار، والتفوا حول جيوش بدر الدين، وأخذوها من كل جانب، وعلا صليل السيوف، وارتفع صهيل الخيل، ونشبت معركة ضاريَة نالت من جيوش بدر الدين كل منال، ثم أشرق النهار وهو ينهب الأرض بفرسه هاربًا، وخلفه من استطاع النجاة من أصحابه.

ولم يضيِّع نجم الدين وقته فبعث الخوارزمية إلى «آمد»؛ ليخلصوها من غياث الدين الرومى، وينقذوا ابنه توران شاه من حصاره، فنازلوا جيش الرومى، وأوقعوا به، وفكوا الحصار.

(١) النفير: الإسراع.

مناقشة الفصل الثاني

-١-

«فنظر نجم الدين إليها ثم قال فى ألم شديد: أعلمت يا شجر الدر بما كان؟! ملك مصر لسيف الدين بن سوداء، ودمشق للجواد مظفر الدين يونس.. وأنا هنا على الثغور. هذا تدبير سيودى بنا جميعًا».

(أ) هات المطلوب لما يلى فى ضوء الفقرة:

- معنى «الثغـــــور» : ....
- مضـاد «يـودى بنا» : ....
- جمع «ملــــــــــك» : ....

(ب) بم لقب سيف الدين بعد توليته ملك مصر؟ وأين كان نجم الدين حينذاك؟

(جـ) ما وقْع خبر تولية سيف الدين ملك مصر على نجم الدين؟ ولماذا؟

(د) علل لما يأتى:

- انسحاب نجم الدين من الرحبة، وموافقة شجر الدر.
- اختلاف نجم الدين مع الخوارزمية.

«ولم يكد يستقر فى «سـنجار» حتى كانت جيـوش غياث الدين الرومى تحاصر «آمد» أعظم مدن ديار بكر، وفيها توران شاه بن نجم الدين، وكان بدر الدين لؤلؤ قد أسرع هو الآخر بجيشه، والتف حول قلعة «سنجار» مهددًا متوعدًا...».

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلى:

- مرادف «تحاصر»: (تعتدى - تطوق - تهاجم)
- مضاد «أسرع»: (أبطأ - تراجع - توقف)
- جمع «قلعة»: (مقاليع - قلوع - قلاع)
- بين «مهددًا» و«متوعدًا»: (ترادف - تفصيل - تضاد).

(ب) لماذا لجأ نجم الدين إلى «سنجار»؟

(جـ) بم هدد أمير الموصل نجم الدين؟ ولماذا؟

(د) ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة مع تصويبها:

- وقف الخوارزمية مع نجم الدين أثناء حصاره. ( )
- استعان نجم الدين برأى الملك العادل فى كيفية فك الحصار. ( )
- دبرت «شجر الدر» خطة لإنهاء الحصار. ( )

-٣-

«قال القاضى وهو يضغط كفه اليسرى براحته اليمنى:

«أمر مطاع يا مولاى، نحن أنصارك، وأحباؤك، ورهن إشارتك»».

قالت شجر الدر: «يريد مولاى أن يبعثك إلى الخوارزمية؛ لتستميلهم بلباقتك، وقوة بيانك، وحسن مداخلك، تعدهم وتمنيهم، وتمحو من نفوسهم كل شىء...»».

(أ) ضع فى الفراغ المطلوب لما يلى فى ضوء الفقرة السابقة:

معنى «يضـــغــط» : ....

جمع «أمـــــــر» : ....

علاقة «لتستميلهم» بما قبلها: ....

مفرد «مـــداخـــل» : ....

(ب) كانت شجر الدر صاحبة الرأى فلماذا نسبته إلى زوجها؟

(جـ) ما مبررات اختيار القاضى؛ ليكون رسولاً إلى الخوارزمية؟

(د) بين موقف القاضى بدر الدين مما عرضه الأمير نجم الدين.

(هـ) اتصفت شجر الدر بالذكاء، والمهارة فى رسم الخطط للخروج من المحن. وضح ذلك.

-٤-

«ولم يكد القاضى يبلغ مضارب الخوارزمية، ويتحدث معهم، ويقرأ عليهم الكتاب، حتى دوى الأمر بالنفير، فقفز الفرسان على صهوات جيادهم، وانطلقوا مسرعين إلى «سنجار»، والتفوا حول جيوش بدر الدين، وأخذوها من كل جانب...».

(أ) هات المطلوب لما يلى، وضع ما تأتى به فى جملة مفيدة:

مرادف «النفـــيـر» : ....

مفرد «جـــيـــاد» : ....

(ب) كيف خرج القاضى من القلعة، وبلغ مضارب الخوارزمية؟

(جـ) نجحت شجر الدر فى استمالة قومها. وضح ذلك.

(د) تناول بأسلوبك نتيجة معارك الخوارزمية فى سنجار وآمد.

(هـ) «القوة العسكرية» سلاح ذو حدين. وضح ذلك فى ضوء دراستك للفصل الثانى.

(و) لخص مضمون الفصل الثانى فى حدود خمسة عشر سطرًا.

(٣) بسمة الأمل

بعد أن تحقق لنجم الدين الانتصار على بدر الدين لؤلؤ، وعلى غياث الدين الرومى، وتم إنقاذ ابنه توران شاه من الحصار انتقل إلى حِصن «كِيفا»[١] على حدود التركستان[٢]، وشرع فى ترتيب أمره، وتدَبُّر أفضل الطرق للوُصول إلى عرش مصر.

وكان قد مضى بعض الوقت، دون أن يعرف شيئًا عن مصر، فلا رسالة أقبلت ولا نبأ أتى، ولم يفِد عليه أحدٌ من أنصاره، الذين يُقبلون عليه من هناك، ويُطلعونه على دقائق الأمور، فَقَلِقَ على أصحابه؛ خوفًا من أن يكون مكروه قد أصابهم، وكانت قافلة قد وصلت بالأمس من مصر، ولم يأت إليه أحد منهم إلى الآن.

ولما اشتَدَّ الضِّيق بصدره، خرج إلى شُرْفةٍ من شرفات الحِصن المنيع، وجعل يقلب بصره فى كل ناحية، وشجر الدر بجانبه تحدثه جاهِدةً فى تفريج كَرْبه، وإزالة همِّه، وبينما هو فى قلقه إذا بأحد الخدم يستأذن لأبى بكر القمَّاش أحد تجار القاهرة فأسرع بالإذن له، واستقبله بسرور بالغ.

(١) كيفا: بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على نهر دجلة بين «آمد»، وجزيرة ابن عمر من ديار بكر.

(٢) التركستان: اسم جامع لكل بلاد الترك.



لما اشتد الضيق بصدر نجم الدين خرج إلى شرفة الحصن المنيع وجعل يقلب بصره فى كل ناحية، وبجواره شجر الدر.

وبعدما عرض أبوبكر بضاعته الجديدة، مدَّ يده إلى نجم الدين بقطعة من الذهب قائلاً: «أرأيت يا مولاى هذا الدينار الجديد؟!».

فتناوله نجم الدين من يده، وقرأ ما عليه من الكتابة، فبدا فى وجهه الامتِعاض[1] الشديد، ثم ناوله شجر الدر فقرأته ثم قالت متعجبة: «العادل سيف الدين ملك مصر، والشام، واليمن...» ثم ردته إلى نجم الدين، ولم تَزِدْ شيئًا عما بدا فى وجهها من السخرية، وما ارتسم فيه من الألم، والتفت نجم الدين إلى أبى بكر، وقال فى اهتمام شديد: «حدثنا عن مصر يا أبا بكر؟!».

- جرت الأمور يا مولاى على النحو الذى يحبه العامة فقد عاشوا أيامًا بين الذَّبائح التى تنحر فى الميادين وتحت قلعة الجبل، وتُوَزع لحومها عليهم؛ ابتهاجًا بمَلك مصر الجديد، وماجت الشوارع بالألوف التى خرجت؛ لتشاهد موكب العادل سيف الدين، وهو يَشقها إلى القلعة بين جنوده وأعوانه!

(١) الامتعاض: الغضب، يقال: امتعض إذا غضب، وشقَّ عليه الأمر.

– وكيف حال الأمراء والقواد يا أبا بكر؟

لم يبق في مصر يا مولاي إلا ذوو النفوس الخبيثة الطامعة!

– والمَلِك يا أبا بكر؟!

– والملك يا مولاي وراء الأستار وخلف الجدران، خبير بالجَوارِي وألوان الشراب والتَّرف، لا يُفيق إلا حين يضعُ يده في خزائن الدولة، يَغترف منها ما يشاء، لينفقه في اللهو والمجون.

وقد تقرب إليه الأمراء بما يحب من الجواري؛ ليحظوا عنده بمكانة كبيرة، وكان أحظاهم عنده داود أمير الكرك الذي أصبح الآمر الناهي في قصر العادل، يقصي عنه الناصحين والمخلصين؛ ليزداد تسلطًا عليه، وتمكنًا منه حتى لم يبق حوله أحد من ذوي الرأي والتدبير فهذا الأمير فخرالدين بن شيخ الشيوخ مقبوض عليه مُعْتَقَلاً بقلعة الجبل، متهمًا بمكاتبتك يا مولاي، وحثك على الإسراع إلى مصر وإنقاذها!

ألم يعلم مولاي بخبر العادل والجواد نائب دِمَشق؟!

يبدو أن العادل اتفق مع داود صاحب الكرك على أن يعطيه دمشق، وأحب أن يحتال على الجواد؛ لينفذ هذا الاتفاق، فبعث

إليه بكتاب يعطيه فيه الشَّوْبَك، وثَغر الإسكندرية، وقليوب، وعشر قرى من قرى الجيزة، فى مقابل أن ينزل عن نيابة السلطنة بدمشق، ثم يزيد فى الخديعة، فيرجوه أن يسرع إلى قلعة الجبل بمصر؛ ليكون بجانبه، يعمل برأيه؛ فهو فى أمَسِّ الحاجة إليه.

– وبماذا أجاب الجواد يا أبا بكر؟!

– لم ينطل ذلك على الجواد، ولقد علمت أن الجواد فكر فى أن يستعين بمولاى!

– يستعين بى أنا؟! وكَيْفَ يا أبا بكر؟

وفيما هما فى ذلك الحديث، إذا برسول أقبل من عند الجواد برسالة يرجو الرد عليها سريعًا، ففضها نجم الدين ونظر فيها، وجعل يقرأ والبشر يزداد فى وجهه، ولم يتمهل نجم الدين، وأمر بدواة وقلم، وأعطى الكتاب شجر الدر، فقرأته، وهزت رأسها موافقة فى سرور، ثم التفت نجم الدين إلى أَبى بكر، وقال فى بشاشةٍ: خبر صادق يا أبا بكر! جاء الكتاب، ووافقت على جميع ما فيه!

ثم كتب الرد، وسلمه إلى الرسول، فانطلق به مسرعًا، وانْثَنَى نجم الدين إلى أبى بكر وقال: سندخل دمشق يا أبابكر!

استعان بى الجواد كما قلت، فعرض علىَّ أن أقايضه، آخذ دمشق، ويأخذ هو حصن كيفا وسنجار، وقد أسرعت بالموافقة كما رأيت! فاشتد سرور أبى بكر وقال فى فرح: «صَفْقة رابحة يا مولاى!» وعقبت شجر الدر قائلة: «زاد الأمَل إشراقًا يا مولاى، فهل بعد دمشق سوى مصر؟! ثمانيةَ عَشَر يومًا بالسفر الوَئيد[1] الهادِئ!

- والعوائق يا شجر الدر؟!

- وهل يقف أمام نجم الدين، وعزماته عائق مهما كان؟!

- قال أبو بكر والشك يخامره[2]: عدت أفكر فى هذا الذى صنعه الجواد. فلَيته يَثْبُت على رأْيه يا مولاى! وأخشى أن يتدبر الصفقة، ويعرف الفرق، ويَرْجِع وينقضَ ما أبرم!

- فعَقَّب نجم الدين مسرعًا قائلاً: لن ننتظِر حتى يفكر ويتدبر!

- أما أنت يا أبا بكر فتعود إلى مصر مع القافلة، ومعك تعليماتى إلى أتباعى من الأمراء الثائرين على العادل وفساده، والداعين إلى الإصلاح والوَحْدة وجمع الكلمة، من يَنْشُدونَ سُلطانًا قويًّا حازمًا، يثقُون بعزمه، وقدرته على مواجهة الفرِنج والتتار.

(١) الوئيد: المتأنى المتمهل.

(٢) يخامره: يخالط قلبه.

كما تحمل سلامًا حارًّا إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ المعتقل بقلعة الجبل، وتطمئنه على الخَلاص، وكان معه أنباء أخرى عن تدبير نجم الدين لدخول مصر، واقتراب الفرج.

وكان رد نجم الدين بالموافقة على المقايضة قد بلغ الجواد، فظن أنه وُفِّق، وأذاع الخبر فى دمشق، فارتاح الناسُ إلى ذلك، وارتقَبوا وصول نجم الدين، وفى أول جمادى عام ٦٣٦هـ استقبلت دمشق الصالح نجم الدين أحسن استقبال، وكان على فرسه الأشهب رافع الرأس باسم الثغر، يحيط به الفرسان الأشداء، وشجر الدر فى هودجها سابحة فى أحلامها، تتخيل دمشق ببهائها وجمالها، وتتعجل الوصول إليها.

مناقشة الفصل الثالث

-١-

«وبعدما عرض أبو بكر بضاعته الجديدة، مد يده إلى نجم الدين بقطعة من الذهب قائلاً: «أرأيت يا مولاى هذا الدينار الجديد؟!».

فتناوله نجم الدين من يده، وقرأ ما عليه من الكتابة، فبدا فى وجهه الامتعاض الشديد، ثم ناوله شجر الدر...».

(أ) حدد الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

- مرادف «الامتعاض»: (الذهول – النفور – الغضب)
- مضاد «بدا»: (خفى – جهل – نسى)
- الغرض من الاستفهام فى الفقرة:

(التعجب – النفى – التقرير)

(ب) كانت شجر الدر زوجًا مخلصة وفية لزوجها. استدل على ذلك.

(جـ) من أين جاء أبو بكر؟ وكيف استقبله الأمير؟ ولماذا؟

(د) لم ظهر الامتعاض فى وجه نجم الدين؟

-٢-

«والملك يا مولاى وراء الأستار، وخلف الجدران خبير بالجوارى وألوان الشراب والتــرف، لا يفيق إلا حين يضع يده فى خزائن الدولة، يغترف منها ما يشاء، لينفقه فى اللهو والمجون».

(أ) ضع فى الفراغ الآتى ما يطلب منك لما يلى:

مفرد «الجـــوارى» :..

جمع «خـــبـــيـــر» :..

(ب) «الناس على دين ملوكهم». وضح ذلك فى ضوء دراستك للفصل.

(جـ) الفقرة تتضمن عوامل انهيار الأمم والشعوب. بين ذلك.

(د) علل لما يأتى:

- ابتهاج عوام الناس بمقدم الملك العادل ملك مصر الجديد.
- اعتقال الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بقلعة الجبل.

-٣-

«وفيما هما فى ذلك الحديث، إذا برسول أقبل من عند الجواد برسالة يرجو الرد عليها سريعًا، ففضها نجم الدين، ونظر فيها، وجعل يقرأ والبشر يزداد فى وجهه، ولم يتمهل نجم الديـن، وأمر بدواة وقلم، وأعطى الكتاب شجر الدر فقرأته، وهزت رأسها موافقة فى سرور...».

(أ) حدد الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

- الضمير «هما» يعود على: (نجم الدين وشجر الدر – شجر الدر وأبى بكر – نجم الدين وأبى بكر).
- علاقة «ففضها» بما قبلها: (نتيجة – تفصيل – تعليل).
- التعبير بقوله: «إذا» يفيد: (الشك – المفاجأة – التقليل).

(ب) لماذا لقى كتاب «الجواد» قبول نجم الدين، وموافقة شجر الدر؟

(جـ) قال أبو بكر «صفقة رابحة يا مولاى». ماذا يقصد بهذا القول؟

(د) أبدى أبو بكر شكه فيما عرضه الجواد. علام بنى شكه هذا؟

-٤-

«أما أنت يا أبا بكر فتعود إلى مصر مع القافلة، ومعك تعليماتى إلى أتباعى من الأمراء الثائرين على العادل وفساده، والداعين إلى الإصلاح والوحدة، وجمع الكلمة من ينشدون سلطانًا قويًّا حازمًا، يثقون بعزمه، وقدرته على مواجهة الفرنج، والتتار».

(أ) ضع خطًّا تحت الإجابة الصحيحة مما بين القوسين لما يلى:

مرادف «ينشدون»: (يكلمون - يرجون - يطلبون)

مضاد «فساد»: (صلاح - بناء - إخلاص)

مفرد «الداعين»: (الداعية - الداعى - الدعاء)

(ب) لماذا أسرع نجم الدين بالرد على رسالة الجواد؟

(جـ) حددت الفقرة دور كل من الحاكم والمحكوم تجاه الوطن. وضح ذلك.

(د) ماذا تحمل تعليمات نجم الدين للأمراء، وتحيته للأمير فخر الدين؟

(هـ) فى حوالى عشرة أسطر عبر بأسلوبك عن أهم ما تضمنه الفصل الثالث.

(٤) عَقَبة فى طريق الأمل

وعندما استقر نجم الدين، وشجر الدر فى دمشق قالت شجر الدر فى سرور: «منزلٌ سعيدٌ يا مولاى، وما بعده أسعد بإذن اللَّه».

– قال الصالح نجم الدين وهو يُسرِّح بصره بعيدًا، ناحية مصر: ولكن كيف الوصول إلى مصر؟!

أعاننا القَدَر ودخلنا دمشق، بغير أن نرفع سيفًا أو نُرِيق دمًا، أما بعد هذا فالطريق شائك، ولا أدرى ما خُبِّئ لنا فيه من سيوف بنى أيوب وكمائنهم(١)، وخبث الفرنج، وتدبير سوداء بنت الفقيه، وكيد أتباعها الموجودين فى صفوفنا.

– قالت وبريق الأمل يلمع فى عينيها: بعزم مولاى تهون الشدائد، وبتوفيق اللَّه تزول العقبات وتنهد الرَّواسى، وليس مع الشجاعة والعزم الصادق صعب، ولا مع الإيمان بالحق مستعصٍ.

---

(١) الكمائن: جمع كمين، وهو ما يصنع فى الحرب حيلة، فيَستَخفون فى مكمنٍ لا يفطن بهم أحد، ثم ينقضُّون على العدو على غفلة منه.

علينا أن نُدَبِّر واللَّه الكريم هو الملهم والموفق، فاللَّه يرى هذه الأمة ومُصابَها، ويعلم حاجتها فى هذه الظروف إلى مولاى، وسَيُعينه على أن ينتقِم من أولئك الغُزاة الذين دَنَّسوا الأرض الطَّاهرة.

– قال نجم الدين: «كلام جميل يا أمَّ خليل! يعجبنى منك قلبك الثابت، ونفسك الوثَّابة التى لا يعتَريها الكَلالُ، ولا تنال منها الشَّدائد. فأسرعت فى نَبرات واثقة قائلة:

– «وكيف لا، ومولاى نجم الدين الأيوبى، هو مصدر قوتى وشجاعتى، يمنحنى العزم والإقدام، ويفتح أَمامِى آفاق الأَمل».

وفيما هما يَتَناجَيَان، إذا بالحاجب يعلن لنجم الدين وصولَ عمه مجير الدين وعمه تقى الدين من مصر، واستئذانَهما عليه، فانصرفت شجر الدر، وأذن لهما نجم الدين، فدخل عليه عمَّاه، ومعَهما بعض أُمراء مصر، وقضوا بقية الليل يُحَدِّثونه عن فِرارهم من العادل، وعن مصر وما تَردَّت فى حَمْأته، وإلْحاح الشعب على أن يمد إليهم نجم الدين يدَه، ويسرع بالقدوم، وتخليصهم من شر العادل وحاشِيَتِه، ونجم الدين يسمع ويفكِّر، حتَّى صاح به تقى الدين قائلاً فى حماسة واستعطاف:

– الواجب يدعوك يا مولاى. فمتى تُلَبِّى داعِيَه؟! واجبٌ على مولاى أمامَ اللَّه أن ينهض إلى مصر، ويُطفِئ النار المشتعلة بها قبل أن تحرِقَها، إن مصر قوة هائلة يا مولاى إذا ضَعفتْ ضعف الشام معها، إنها القلب النابض لكل جيوشنا، فهلا عجل مولاى بالرحيل إليها؛ لينتشلها مما هى فيه.

– فكر نجم الدين فيما سمع واقتنع به، فهو يعرف أن مصر قوة عظيمة يستطيع أن يضرب بها الفرنج الضربة القاضية، وينهى قصتهم فى هذه البلاد؛ فهو لا ينسى مآسيهم، ولا يغفُل عنهم، ولا يغيب عن باله أنهم أخذوه رهينة فى موقعة دمياط التى نشبت فى عهد والده الكامل، حين هاجموا هذا الثَّغر عام ستِّمائة وخمسةَ عَشَر للهجرة؛ ليدخلوا منه مصر.

لذلك أرسل إلى عمه إسماعيل يطلب منه أن يسرع إليه؛ ليساعده فى دخول مصر، ولم ينتظر وصول عمه فاندفع بجيشه مسرعًا إلى مصر، وظل يتابع المسير به حتى بلغ «نابلس» فاستولى عليها ثم وقف ينتظر وصول عمه إسماعيل.

ولكن قبل أن يصلَ كتاب نجم الدين إلى عمه الصالح

إسماعيل، كان كتاب ورد المنى ونور الصباح[1] قد بلغ إسماعيل، يبلغانه فيه باتفاق نجم الدين والجواد، ويحذرانه من خطر ذلك عليه. فرد عليهما يحثهما على بَثِّ الفُرقَة بين جنود نجم الدين، ولاسِيَّما من معه من الأيوبيين إلى أن يرى رأيه.

– ولم تتمهَّلاَ فقامتا على الفور بالاتصال بعمَّيه: مجير الدين وتقى الدين اللذين يصاحِبانه. ودار بينهم حديث طويل سخرت فيه ورد المنى منهما، وهَزِئَت من صبرهما على الطَّاعة لجارية من الجوارِى تأمر وتَنهى، وحذَّرتهما من البقاء مع نجم الدين، وخوَّفتهما بطش شجر الدر إذا تم لها الأمر، مؤكدة لهما أنها تَسْعَى للمُلك لنفسها لا لابن أخيهما نجم الدين، وأنها إذا وصلت إلى الملك قضَت على الأيوبيين صغيرًا وكبيرًا.

وبخِداع المرأة ودهائها، ولباقة ورد المنى انخدع الرجلان، وعاونا على إشاعة الفرقة بين أتباع نجم الدين من الأيوبيين.

وبينما كان الأمير نجم الدين ينتظر وصول عمه الصالح إسماعيل، أَقبلت الأنباء إليه بأن إسماعيل هجم على دمشق بجيش ضخم، واقتحمها، وحاصر قلعتها.

---

(١) جاريتان من جوارى نجم الدين حاقدتان على شجر الدر، وتعملان لحساب سوداء بنت الفقيه وابنها العادل حاكم مصر؛ بهدف تحطيم شجر الدر، والقضاء عليها.

قال نجم الدين لِعَمَّيْه: «ماذا تريان فى هذا الموقف الحرج؟»، فأسرع مجير الدين قائلاً فى عجب: «ماذا نرى؟! وهل الأمر يحتمل التشاور والأخذ والرد؟!

أموالنا وأولادنا هناك! أننتظر حتى ينهب الصَّالح إسماعيل دمشق، ويقبض على أهلنا، ويُذيقَهم الهوان؟!».

وهكذا أجاب تقى الدين قائلاً: «ماذا أرى؟! أليس من الأفضل أن نعود؟! وكيف نتقدم خُطوة واحِدَةً وظهرنا مكشوف؟! أَنأْمَنُ أن يسرع إسماعيل خلفنا، ويَحْصُرَنا بين نارين: ناره ونار العادل وجيوش مصر؟!».

– فاشتد عجب نجم الدين لهذا التبدل من عمَّيه، وكظَم غيظه[1]، ولم يرَ أمام هذه الظروف العصيبة، إلاَّ أن يوافقهما، ويُقَرِّرَ العودة إلى دمَشق، وأسرع بمن معه عائدًا حتى بلغ القُصَير[2]. ولم يكن من رأى شجر الدر أن يعودَ، فقد كانت تفضل التقدم إلى مصر، ومن هُناك يعرف نجم الدين كيف يَنْتَزع دمَشق، ويؤَدب الصالح إسماعيل وجنوده.

وعند القُصير، أقبلت الأنباء بسقوط قلعة دمشق فى يد الصالح إسماعيل، فعاد نجم الدين يسأل عمَّيه عما يريان فيما صنع إسماعيل، ويؤكد لهما أنه لا يَرى جَدْوَى من العودة، وأن

(١) كظم غيظه: أمسك على ما فى نفسه منه، ولم يظهره.

(٢) بلد بالشام غير الذى بمصر.

خُطوةً إلى الأمام خير من خطوة إلى الخَلف، فأسرع مجير الدين يجيب فى صوت ساخر: «ونترُك أهلنا وأموالنا؟! نتقدَّم إلى هدف مجهول، وندع ما فى أيدينا؟!».

– ولم يتمهل هو وأخوه، وأَمَرا أتباعَهما ومن أغْرياه[1] بالعودَة، فانطلقوا إلى دمشق وتركوا نجم الدين، ليس معه سوى مماليكه وامرأته شجر الدر. قالت شجر الدر فى غير اكتراث لهذه الحوادث المتلاحقة: «لا بأس على مولاى! كل ما جَرَى دون[2] عزمِ مولاىَ وشجاعته وصبره. وما خُلِق الرجال إلا ليُجابهوا الصِّعاب[3] ويتغلبوا على الشدائد!».

– وكيف نتصرف اليوم يا شجر الدر؟! لم نَحسب حساب إسماعيل وخبثه وأَطماعِه، وتركنا دمشق قبل أن نُسَوِّيَ حسابنا معه، وكان الأجْدَر ألاَّ نخرج منها قبل أن نقبضَ عليه، ونسجنه أو نأخذه معنا!

– أجابت فى هدوء: «وقد كان معنا مجير الدين وتقى الدين وكثير من بنى أيوب، فهل أغنى شيئًا أن كانوا بيننا؟! من خلفنا يا مولاى عقارب تسعى، وأظافر تحفر، وأمور تدبر! وهذه

(١) خدعاه.
(٢) دون: أقل.
(٣) يجابهوا الصعاب: يواجهوها.

تجربة ساقها اللَّه إلى مولاى؛ ليعلم أنه لابُدَّ من أن يَنْبُذَ هؤلاء الحاقدين الذين لا تصفو قلوبهم، ويبحث عن آخرين يُحبهم ويحبونه، لا تنطوى أفئدتهم على حقد أو تفور بأطماع.

لن ينفعك يا مولاى سوى غلمانك الذين تُنشِّئهم على طاعتك، وتملأ قلوبهم بحبك، تأتى بهم صِغارًا فتكون لهم الأب والأخ والعم، وتزيد منهم حتى تصل إلى ما تريد.

كل بنى أيوب يا مولاى طامع فى المُلْكِ لا حديثَ لصغيرهم ولا لكبيرهم سوى الحكم والسلطان، يَنْبُتُونَ فى حَمْأَةِ[1] الخلاف، والتباغض، والتحاسد. فتنمو الفرقة فى صدورهم، ويشُب كل منهم على حِقد آبائه وأطماعهم، لا يعرف إلا التخاصم والتنازع، والعمل على انتزاع ما كان للآباء والأجداد والإخوة والأعمام، دون النظر إلى القَوِى القادر، الذى يحمل الأعباء، وينهض بوِزْر[2] الحكم الثقيل!

كل واحد منهم يا مولاى يعيش فى دوامة الطمع، لا يفكر فى قدرته واستعداده، ولا يعرف ثقل الحِمْل الذى يوضع على عاتِقه إن قُيِّض له أن يحكم، حتى الأبْلَه منهم يا مولاى يظن أنه يستطيع!».

(١) الحمأة: الطين الأسود المنتن.

(٢) حِمل.

– هز نجم الدين رأسه مرات، ثم قال: «معك حق يا شجر الدر، وكيف نخرج من مأزق اليوم؟! تدبِيرٌ بُيِّت بليل كما تقولين، فما العمل؟!».

– الأمل فى جانب واحد يا مولاى! فى جانب داود صاحب الكرك.

– عجبًا! وهل يُرجى من داود خيرٌ؟!، إنه مرةً معنا ومرة علينا، وكل همه أن يصل إلى مُلك الشام الذى كان لأبيه، وأنا اليوم أشد خوفًا من جانبه، فإذا علم بما نحن فيه، هاجمنا وانتهى منا!

قالت مسرعة: «إنه لن يهاجمنا، ولن يقضى علينا؛ لأن ذلك يقوى عدوه إسماعيل، وأرى أنه فى حاجة إلينا؛ لنعاونه على أن يأخذ دمشق! ألا يرى مولاى أن نبعث إليه، ونُمَنِّيه بِها، ونضُمه إلينَا، ونتقوَّى به فى هذا الموقف. ولا إخاله إلا مستجيبًا؟!» وكان داود فى ذلك الوقت فى مصر يطلب معاونة الملك العادل على بلوغ دمشق.

وافق نجم الدين على ما اقترحت شجر الدر، وشكر لها رأيها الصائب، وكتب تَوًّا[1] إلى داود يَعِدُه ويُمنِّيه، وأسرع الرسول بالرسالة، ينهب الطريق إلى مصر.

(١) فى الحال، لم يتمهل. ويقال: جاء تَوًّا، أى جاء قاصدًا لا يُعَرِّجه شىء.

مناقشة الفصل الرابع

-١-

«ولكن كيف الوصول إلى مصر؟!... أعاننا القدر، ودخلنا دمشق بغير أن نرفع سيفًا أو نريق دمًا، أما بعد هذا فالطريق شائك، ولا أدرى ما خبئ لنا فيه من سيوف بنى أيوب وكمائنهم، وخبث الفرنج، وتدبير سوداء بنت الفقيه، وكيد أتباعها الموجودين فى صفوفنا».

(أ) هات من الفقرة السابقة ما يلى:

- كلمة بمعنى «ساعد» : ....
- مضادًّا لكلمة «نصون» : ....
- تركيبًا بمعنى «أجهل» : ....

(ب) ما غرض الاستفهام فى الفقرة؟

(جـ) حدد نجم الدين العقبات التى تحول دون الوصول إلى مصر. وضحها.

(د) هوَّنت شجر الدر من كثرة العوائق التى تقف فى طريق نجم الدين. فماذا قالت؟

-٢-

«الواجب يدعوك يا مولاى. فمتى تلبى داعيه؟! واجب على مولاى أمام اللَّه أن ينهض إلى مصر، ويطفئ النار المشتعلة بها قبل أن تحرقها، إن مصر قوة هائلة يا مولاى، إذا ضعفت ضعف الشام معها؛ إنها القلب النابض لكل جيوشنا...».

(أ) تخير الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

معنى «تلبى»: (تذهب – توافق – تستجيب)

مضاد «يطفئ»: (يشعل – يزيد – يساعد)

المتحدث فى الفقرة هو: (مجير الدين – تقى الدين – بدر الدين)

(ب) عرضت الفقرة قضية مؤيدة بالدليل عليها. وضح ذلك.

(جـ) وضح موقف نجم الدين فيما سمع، مبينًا ما ترتب عليه.

(د) علل لما يأتى:

- رغبة نجم الدين فى الانتقام من الفرنج.

-٣-

«ولكن قبل أن يصل كتاب نجم الدين إلى عمه الصالح إسماعيل، كان كتاب ورد المنى، ونور الصباح قد بلغ إسماعيل، يبلغانه فيه باتفاق نجم الدين والجواد، ويحذرانه من خطر ذلك عليه، فرد عليهما يحثهما على بث الفرقة بين جنود نجم الدين...».

(أ) ضع فى الفراغ التالى ما هو مطلوب لما يلى:

- معنى «يبلغـــانـه» : ....
- جمع «خـــطـــر» : ....
- مضاد «اتـــفـــاق» : ....

(ب) لماذا أرسل نجم الدين كتابًا إلى عمه الصالح إسماعيل؟

(جـ) ما الدافع وراء إرسال كتاب ورد المنى ونور الصباح إلى الصالح إسماعيل؟

(د) بم رد الصالح إسماعيل على كتابهما؟، وماذا فعلتا؟

-٤-

«قالت شجر الدر فى غير اكتراث لهذه الحوادث المتلاحقـة: «لا بـأس على مولاى! كل ما جرى دون عزم مولاى وشجاعته وصبره، وما خلق الرجال إلا ليجابهوا الصعاب، ويتغلبوا على الشدائد».

وكيف نتصرف اليوم يا شجر الدر؟ لم نحسب حساب إسماعيل وخبثه وأطماعه، وتركنا دمشق قبل أن نسوى حسابنا معه».

(أ) هات من الفقرة المذكورة ما يلى:

كلمة بمعنى «اهتـمـــام» : ....

مضـادًّا لكلمة «جـــزع» : ....

(ب) الزوجة المخلصة عون لزوجها فى أوقات الشدائد والمحن.

وضح من خلال الفقرة.

(جـ) النفوس الخبيثة لا تفى بوعد، ولا تلتزم بعهد. استدل على ذلك.

(د) مم حذرت شجر الدر نجم الدين؟ وبم أشارت عليه؟

(هـ) «ما خلق الرجال إلا ليجابهوا الصعاب - خلق الرجال ليجابهوا الصعاب».

أى التعبيرين السابقين أفضل؟ ولماذا؟

(٥) خُدعة ومكيدة

قبل أن يصل رسول نجم الدين برسالته إلى داود فى مصر، كان داود قد ترك مصر حين يئس من الملك العادل، وقطع الأمل من معاونته إياه على بلوغ دمشق، وجاء إلى قلعته بالكرك، وأرسل إلى نجم الدين فماذا يريد داود من نجم الدين..؟

وبينما نجم الدين يفكر فى حاله، ويتدبر موقفه إذا بعماد الدين بن مَوْسِك وسُنقُر الحَلبِى يَأتيان إلى نابلس، ويستأذِنان عَلَيهِ، ويُسَلِّمان قائلين فى تَبْجيل: السلامُ على مولانا المعظَّم، سلطان مصر والشام، ومنقِذ العرب، ومحطمِ الفرنج، وأملِ هذه الأمة ورجائها!

فعجب نجم الدين لهذه النَّغَمَةِ منهما، وردَّ السلام بأحسن منه، ثم أدناهما، وسألهما عن داود وأين هو الآن، فأسرعا قائلين فى تَوَدّد: «هو فى قلعة الكرَك أيها السلطان العظيم، نبذ العادل وحاشيته، كارهًا لما ترَدَّى فيه من الفساد واللهو، وأتى يعتذر عن كل ما بدا منه فى حقك يا مولاى، ويفتح معك صفحة جديدةً ناصِعَة البياض».

فأطرق نجم الدين مَلِيًّا[1] يحدث نفسه قائلًا فى دهشة: «عَجبًا ثم عَجبًا!. كيف انقلب داود هذا الانقلاب؛ من عدو لدود[2] إلى صديق حميم؟! رائحة الخيانة تفوح من أفواه هذين الرسولين!» ثم رفع رأسه وأظهر السرور بهما، والرِّضا بما يحملان من خبر.

وعندما رأى فى أعينهما الرَّغبة فى الإقامة عنده أيامًا، أمر لهما بخيمة فَسِيحَة وقِرًى[3] واسع.

ثم جلس نجم الدين إلى شجر الدُّر، وأخذا يعرضان الأمور، ويفكران فى هذين الرسولين وما قالا، وفيما وراء هذا الكلام المعسول.

وبينما هما فى حيرتهما هذه إذا بأشباح تتحرك من بعيد، لا يعرف أحد ما تكون ولا أين تقصِد. وفيما هما فى عجب من أمرها، دَوَّى الأمر بالنَّفِيرِ. وارتفعت صيحات عالية فزعة، تعلن قدوم الفرنج، فأسرع رجال نجم الدين إلى صهوات خيولهم، وهمَزوها فطارت بهم إلى تلك الأشباح، ودخلوا خلفها فى جوف الصحراء، ونجم الدين وشجر الدُّرِّ يخترقان الأفق بعيونهما خلف المطارِدين، حتى اختفت تلك الأشباح، واختفى الجنود معها.

---

(١) طويلاً.

(٢) شديد العداوة.

(٣) القِرى: طعام الضيف.

فالتفت نجم الدين إلى شجر الدر، وسألها فى دهشة عما ترى فى هذا الموقف العجيب، وعن الأشباح التى برزت فجأة، وحكاية الفرنج المهاجمين، وأظهر شكه فى أن يكون ذلك أَمْرًا مُدَبَّرًا لإبعاد الجنود عنه، وإلحاق الأذى به، وجعل يدفع البصر ويُرْهِفُ السمع، منتظرًا أن يعود رجاله، ويعرف منهم خبر تلك الأشباح التى انطلقوا خلفها. ولم يكذب حَدْسُه[1]، فإذا بالظَّهِير وعماد الدين أمامه، ومعهما بغلتان، كل منهما بغير لجام ولا سرج، والظهير يدعوه إلى واحدة منهما قائلاً فى سخرية: «هيَّا يا مولاى إلى هذا المركب الوَطِيءِ[2]».

– إلى أين أيها الرجُلُ؟!

– إلى قلعة الكرك يا مولاى؛ لترى ابن عمك المريض. يُثاب المرء رغم أنفه[3] يا مولاى! ألا تحب أن تزور المرضى وتطمئن على الأهل؟! زيارة المريض واجبة يا مولاى، وما بالك إذا كان ابن العم؟!

– وهل هذا مركب يَليق بالسلطان يا ظهير؟!

فعلت قهقهة الظهير وهو يقول فى شماتة: أليس ركوب هذا الظهر خيرًا من المشى على الأقدام؟! ثم أشار إلى البغلة

(١) ظنه.

(٢) الممهد.

(٣) رغم أنفه: المراد بغير رضاه، كأنما دُسَّ أنفه فى الرغام أى التراب.

الأخرى، وتقدم إلى شجر الدر، وانحنى أمامها باسمًا، ثم رفع رأسه، وقال هازِئًا:

– وللسلطانة مركب مثل مركب السلطان! هكذا أراد الأمير داود يا مولاتى، وأمره مطاع!

وسار الركب حتى ابتلعهم الظلام.

ولما عاد مماليك نجم الدين من مطاردة الأشباح التى لم يعثروا عليها، وجدوا جند داود فى انتظارهم، يهجمون عليهم ويأسرونهم، ومعهم ورد المنى ونور الصباح يُرْقصُهما الفرح، ثم تقدمت ورد المنَى من قائد الأسر بكتاب، رجته أن يبلغه الأمير داود.

ولم يَكَد العادل فى مصر يعلم بما حدث لأخيه نجم الدين، حتى اهتز مع القلعة فرحًا، وأمرت سوداء بنت الفقيه فأقيمت الزينات، ودقت الطبول، وطاف المنادون فى الشوارع والأزقة، يبشرون مصر بأيام سعيدة، بعدما زال المنافس العنيد.

وطار بعض المقَرَّبين برسالة من العادل إلى داود بالكرك، يهنئه على هذه الضربة الموفَّقة، ويسأله أن يرسل إليه نجمَ الدين فى قفصٍ من حديد، نظير أربعمائة دِينار ومُلك دمشق، ثمَنًا لهذه الهدية الثمينة.



وسار الركب حتى ابتلعهم الظلام

أما أبوبكر القماش وأتباعه من دعاة الإصلاح والوَحدة، فقد نزل الخَبَرُ عليهم صواعق راعدة، واجتمعوا فى دار أبى بكر فى حارة «بُرْجُوان» يتشاورون فى هذه النكبة، وسبَحَت أفكارهم فى مصر والشام، وفى العالم العربى كله وما يُنتَظَرُ له من الشَّقَاء، إذا جرت الأمور على هذا النحو.

وعزم هؤلاء المخلصون على أن يسرعوا بحلٍّ لما هم فيه؛ ليُخَلِّصوا البلاد من هذا البلاء الدَّاهم.

مناقشة الفصل الخامس

-١-

«قبل أن يصل رسول نجم الدين برسالته إلى داود فى مصر، كان داود قد ترك مصر حين يئس من الملك العادل، وقطع الأمل من معاونته إياه على بلوغ دمشق، وجاء إلى قلعته بالكرك وأرسل إلى نجم الدين. فماذا يريد داود من نجم الدين؟».

(أ) حدد الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

- مرادف «ترك»: (هاجر - غادر - عادى)
- مضاد «الأمل»: (اليأس - الغضب - الحزن)
- الحرف «قد» يفيد: (التحقيق - الشك - التقليل)

(ب) فى الفقرة رسالتان. - عرف بهما، وبمضمون كل منهما.

(جـ) «الخيانة لا تأتى بخير» - دلل على صدق المقولة من خلال ما تعرفه عن داود.

-٢-

«فالتفت نجم الدين إلى شجر الدر، وسألها فى دهشة عما ترى فى هذا الموقف العجيب، وعن الأشباح التى برزت فجأة، وحكاية الفرنج المهاجمين، وأظهر شكه فى أن يكون ذلك أمرًا مدبرًا لإبعاد الجنود عنه، وإلحاق الأذى به».

(أ) هات المطلوب لما يلى، وضع ما تأتى به فى جملة مفيدة:

■ مفرد «الأشــــباح» : ....

■ مضاد «بــــرزت» : ....

■ جمع «شـــــــك» : ....

(ب) ما الموقف العجيب الذى يقصده نجم الدين؟

(جـ) أثبتت الأحداث صدق ما توقع نجم الدين. وضح ذلك.

(د) «يثاب المرء رغم أنفه». بين مناسبة هذا القول لنجم الدين.

-٣-

«ولما عاد مماليك نجم الدين من مطاردة الأشباح الذين لم يعثروا عليها، وجدوا جند داود فى انتظارهم، يهجمون عليهم ويأسرونهم، ومعهم ورد المنى، ونور الصباح يرقصهما الفرح، ثم تقدمت ورد المنى من قائد الأسر بكتاب رجته أن يبلغه الأمير داود».

(أ) هات ما يلى، وضع ما تأتى به فى جملة مفيدة:

مفرد «مماليــــك» : ....

الفعل الماضى من «يرقصهما» : ....

جمع «قــــائــــد» : ....

(ب) وقع مماليك نجم الدين ضحية مؤامرة خبيثة. وضح ذلك.

(جـ) بين مصير نجم الدين وشجر الدر من خلال دراستك للفصل.

(د) علل لما يأتى:

■ فرح الملك العادل بما حدث لأخيه نجم الدين.

■ إقامة الزينات تنفيذًا لأمر سوداء بنت الفقيه.

-٤-

«وطار بعض المقربين برسالة من العادل إلى داود بالكرك، يهنئه على هذه الضربة الموفقة، ويسأله أن يرسل إليه نجم الدين فى قفص من حديد نظير أربعمائة دينار، وملك دمشق، ثمنًا لهذه الهدية الثمينة».

(أ) أجب عما يلى:

■ ما مرادف «طار»؟ ■ ما مضاد «يهنئه»؟

■ ما المراد بقوله: «يسأله»؟

(ب) وازن بين موقف العادل، وموقف أبى بكر القماش، مبينًا دوافع كل منهما.

(جـ) علل لما يأتى:

■ عودة داود من مصر إلى الكرك يائسًا.

■ قدوم عماد الدين، وسنقر الحلبى إلى نجم الدين.

(د) للأخ حق على أخيه، كما أن للوطن حقوقًا على الحاكمين والمحكومين.. وضح ذلك فى ضوء دراستك للفصل الخامس مستشهدًا بالنصوص الدينية والأدبية.

(٦) الفَـــــرَج

ظل نجم الدين فى قلعة الكرَك سَجينًا، تحت رحمة الحراس الغِلاظ الشداد الذين وُكِّلوا به، لا تُسليه سوى شجر الدر.

وكلَّما اشتد به الكرب، ذكَّرته بالمواقف العصيبة التى وقف فيها ربه بجانبه، وأكدت له أنَّ داود لا يُريد به السوء، وإنَّما يزيد أيام حَبْسه، ليُغْلِىَ الثمن، ويفرض ما يريد، ونجم الدين يسمع لها ويفكر ثم رفع رأسه وقال: مضى سبعة أشهر ونحن فى هذا المحبس القاسى، لا نعلم ماذا سيكون مصيرنا.

– قالت فى نبرات هادئة: إن فرج اللَّه قريب يا مولاى، ولا إخال داود بعد هذه المدة الطويلة إلا مرسلاً إليك، يَعْرِضُ شروطه، وأرجو أن يوافق مولاى على كل ما يطلب، حتى نتخلص من محبسِه ونصل إلى بر السلامة.

فهز نجم الدين رأسه ثم قال فى أسًى:

– ما أظنه بعد هذه المدة الطويلة إلا قَاتِلَنا ومتخلصًا منا، وقابضًا الثمن الذى يعرضه عليه العادل!

– قالت فى ثقة: «لو كان يريد قتلنا ما أبقانا هذه المدة كلها! ألسنا فى قبضته؟! ومن الذى ينقذنا منه لو أراد بنا السوء؟!



- مضى سبعة أشهر ونحن فى هذا المحبس القاسى لا نعلم ماذا سيكون مصيرنا.

- إن فرج اللَّـه قريب يا مولاى.

ولماذا لم يقتلنا حين أرسل إليه عمك الصالح إسماعيل يحثه على التخلص منا؟ قلبى يحدثنى يا مولاى أنه يزيد أيام حبسه ليغلى الثمن، وليفرض عليك شروطه، وأرجو أن تقبل هذه الشروط مهما كان مبالغًا فيها.

ولم يكذب ظنها، فلم يصبح الصباح حتى بعث داود إلى نجم الدين، يعده بإطلاق سراحه والسير معه إلى مصر، ويشترط ثمنًا لذلك دمشق، وحلب، والجزيرة، والموْصِل، وديار بكر، ونصف ديار مصر، ونصف ما فى الخزائن من المال، ونصف ما لديه من الخيل والثياب وغيرها.

قال ابن مَوْسِكٍ وهو ينظر إلى وجه نجم الدين، ويرى عجبه واستِكثاره لهذا الثمن الباهظ: «هذه شروط مولاى الأمير داود، فماذا يرى مولاى نجم الدين؟!!».

تذكر نجم الدين رأى شجر الدر فلم يفكر طويلاً، وقال مظهرًا الرضا والسرور: قبلتُ. ثم وقع العقد بما اتفقا عليه، وعاد رسل داود إليه يُرْقِصهم الفرح بهذه الصفقة الضخمة التى نالها مولاهم، واستعد نجم الدين وشجر الدر للخروج من ذلك السجن، تلوح أَمامَهما مصر ومباهج مصر.

وما إن علمت ورد المنى ونور الصباح بما تم، حتى اشتد بهما الفزع، فقد عَرَفَتا أن شجر الدر تأكدت أن ما أصابها هى

وزوجها كان بتدبيرهما، فإذا وقعتا فى يدها فلا جزاء سوى الذبح، فلم تعودا إلى نجم الدين مع مماليكه الذين عادوا إليه بعد الاتفاق؛ وأسرعتا بالكتابة إلى سَوْداءَ بنت الفقيه، تعلمانها بما حدث، وتحذرانها من التهاون فى العمل، وتخبرانها بأن نجم الدين وداود وشجر الدر فى طريقهم إليها.

فلما بلغ سوداء الكتاب، فزعت وثارت، وجمعت القواد وقالت لهم فى غضب شديد: أرأيتم؟! اتفق داود ونجم الدين! قلت لكم أبقوا داود بمصر، ومدُّوا له الأطماع ومَنُّوه الأَمانى، حتى نتمكن من نجم الدين ثم نأخذه بعده. ومضت تقول فى شدة: «لن يفلت نجم الدين!. ولن ينجو داود! بينهما وبين مصر ما بين السماء والأرض، وسوف أضعهما بين ماضِغى الأسد».

ثم دعت بكاتب، وأَمْلَته كتابًا، وبعثته إلى الصالح إسماعيل بِدِمَشق، تحثه على السير إلى نجم الدين ليُطبق عليه من خلفه، فى الوقت الذى تسير إليه جيوش مصر وتأخذه من أمامه، فلا يستطيع نجاة، ولا يجد مَهربًا!

وملأت كتابها بالتَّحذِير من الخَطَر الذى ستتعرض له دِمشق، إذا دخل نجم الدين مصر. فلم يتمهَّل الصالح إسماعيل وأمر جيشه بالاستعداد، كما استعَد الجيش المصرى لتنفيذ الخطة، وحصر نجم الدين بينه وبين الصالح إسماعيل.

مناقشة الفصل السادس

-١-

«قالت فى نبرات هادئة: إن فرج اللّه قريب يا مولاى، ولا إخال داود بعد هذه المدة الطويلة إلا مرسلاً إليك يعرض شروطه، وأرجو أن يوافق مولاى على كل ما يطلب، حتى نتخلص من محبسه، ونصل إلى بر السلامة».

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلى:

- مرادف «إخال»: (أظن - أجزم - أعتقد)
- مضاد «فرج»: (كرب - غضب - عذاب)
- علاقة «حتى نتخلص» بما قبلها: (تعليل - تفصيل - سبب)

(ب) كانت شجر الدر دائمًا متفائلة، بعيدة النظر. وضح من خلال الفقرة.

(جـ) اختلفت وجهة نظر كل من: نجم الدين، وشجر الدر تجاه ما ينوى داود فعله. بين ذلك.

(د) هل حدث ما توقعته شجر الدر؟ وضح ما تقول.

-٢-

«قال ابن موسك وهو ينظر إلى وجه نجم الدين، ويرى عجبه واستكثاره لهذا الثمن الباهظ: «هذه شروط مولاى الأمير داود، فماذا يرى مولاى نجم الدين؟!».

تذكر نجم الدين رأى شجر الدر فلم يفكر طويلاً، وقال مظهرًا الرضا والسرور: قبلت...».

(أ) ضع فى الفراغ الآتى الإجابة المطلوبة لما يلى:

- مرادف «الباهظ» : ....
- اسم الإشارة للبعيد من «هذه» : ....
- جمع «مولى» : ....

(ب) ما الثمن الباهظ الذى عرضه داود نظير إطلاق سراح نجم الدين وزوجته؟

(جـ) علل لما يأتى:

- إطالة حبس الأمير نجم الدين لدى الأمير داود.
- فزع ورد المنى ونور الصباح حينما علما بإطلاق سراح نجم الدين وشجر الدر.

«فلما بلغ سـوداء الكتاب فزعت وثارت، وجمعت القواد وقالت لهم فى غضب شـديـد: أرأيتم؟ اتفق داود ونجم الدين! قلت لكم أبقوا داود بمصر، ومدوا له الأطماع، ومنوه الأمانى، حتى نتمكن من نجم الدين ثم نأخذه بعده».

(أ) هات المطلوب، وضع ما تأتى به فى جملة مفيدة:

- مرادف «بـــلـــغ» : ....
- مفرد «القـــــواد» : ....
- مضاد «اتـــفـــق» : ....

(ب) ممن جاء الكتاب؟ وما مضمونه؟

(جـ) لماذا فزعت سوداء مما ورد فى الكتاب؟

(د) تفوق تدبير شجر الدر على تدبير ورد المنى ونور الصباح. وضح ذلك.

-٤-

«ثم دعت بكاتب، وأملته كتابًا، وبعثته إلى الصالح إسماعيل بدمشق، تحثه على السير إلى نجم الدين، ليطبق عليه من خلفه، في الوقت الذى تسير إليه جيوش مصر، وتأخذه من أمامه، فلا يستطيع نجاة، ولا يجد مهربًا».

(أ) تخير الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

مرادف «بعثته»: (قدمته – أرسلته – أهدته)

«تأخذه» يراد بها: (تهاجمه – تقابله – تواجهه)

علاقة «ليطبق» بما قبلها: (تعليل – تفصيل – نتيجة)

(ب) لم أرسلت سوداء كتابًا إلى الصالح إسماعيل؟

(جـ) فشلت خطة سوداء فى الإيقاع بنجم الدين وشجر الدر. لماذا؟

(د) ماذا عرضت سوداء فى كتابها للصالح إسماعيل؟

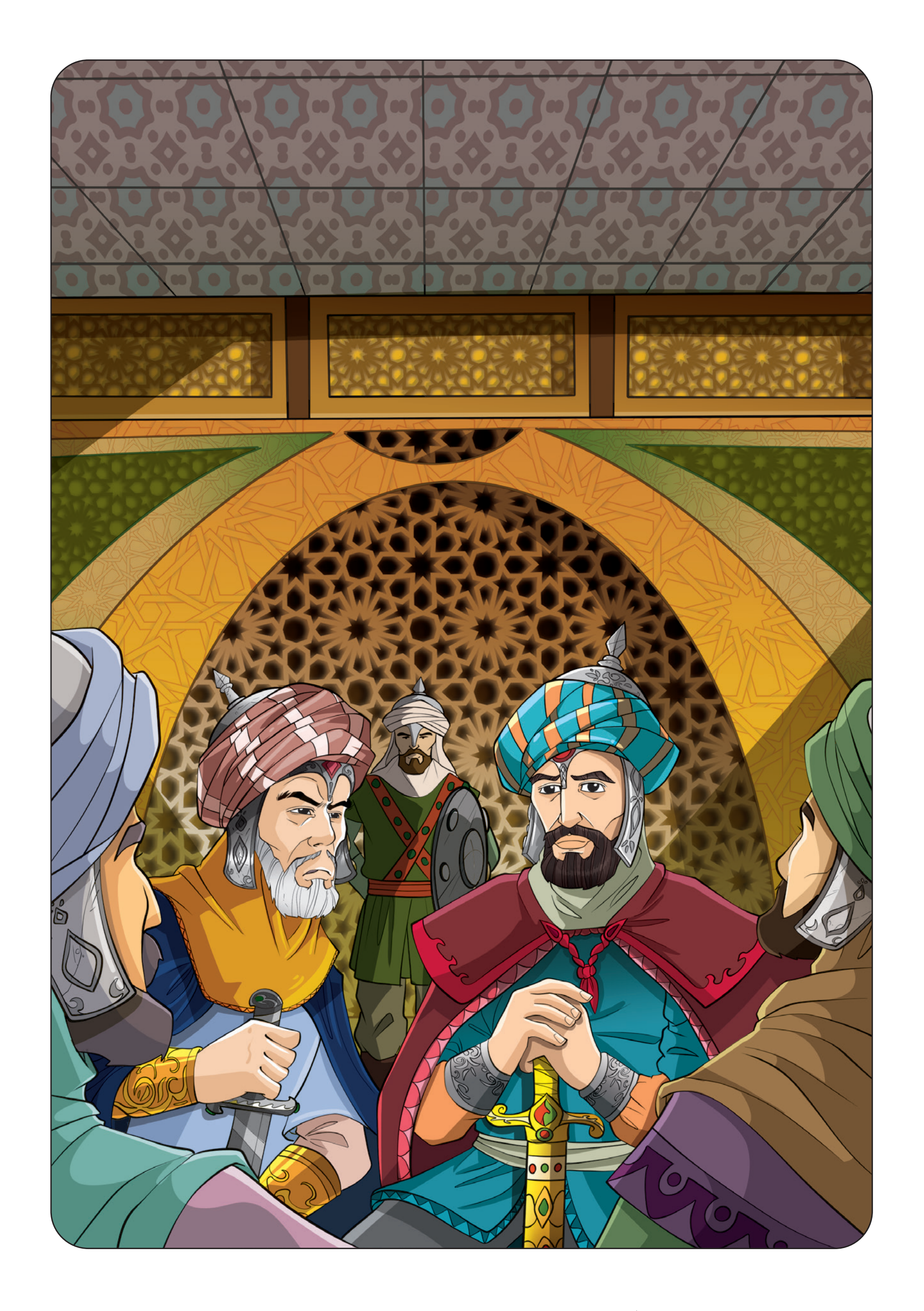
(هـ) ماذا تستفيد من دراستك للفصل السادس؟

(٧) انتفاضة الشعب

هز الفرح جماعة الإصلاح والوَحدة بنجاة نجم الدين، وأقبل بعضهم على بعض مهنئًا، ثم اجتمعوا فى دار القماش وجعلوا يقلِّبون الرأى فى معاونة نجم الدين على دخول مصر، وإبطال كيد سوداء، واتفقوا على أن تشُب ثورة عنيفة فى مصر، حين يخرج العادل للقاء نجم الدين، تُلجِئُ العادلَ إلى العودة سريعًا دون أن يواصل السير، ثم خرجوا يدعون الناس سرًّا إلى ما اتفقوا عليه، ويُبَصِّرونهم بما يجب على الشعب أن يصنعه، للتخلُّص من الحكَّام الجائرين، ويُبَيِّنُون لهم أن البلاد ملْكُ الشَّعْب، وأن الحاكم نائب عن الشعب، يبقَى ما عدل، فإن ظلم أو انحرف وجب خَلْعُه وتولية من يُصلح، وأن السُّكوت على جَوْرِ الحكام لا يُقِره الشرع، بل يعتبر الساكتُ على الظلم شريكًا فيه.

وفى مكان ما من أحد القصور بالقاهرة، كان الأمراء الكامليَّة(١) وغيرهم من الساخطين على العادل وحاشيته، يتدارسون المَوْقِفَ، ويستعرضون ما انتهت إليه الأمور من

(١) نسبة إلى الملك الكامل، وهم الأمراء المعتدلون المخلصون.



أمراء الكامليَّة وغيرهم من الساخطين على العادل وحاشيته يتدارسون الموقف.

السوء، على يد العادل وعبثه ولهوه، وانصرافه عن شئون الدولة، واحتجابه عن الناس، وتركه الزمام للحاشية التى تتجرأ باسمه على الإثم، وتفرض ما تشاء من الضرائب. وتَقْتَرِف ما تَهْوَى من أبشع الجرائم اعتمادًا على قربها منه، وتلك الأُلوف من الدنانير التى تنثر على المساخِر، والعابثين، والمضحكين، والسمار الذين تحفل بهم القلعة من أول الليل إلى مطلع النهار، لا يُفيقون ولا يعرفون سوى الكأس وبريق الدنانير التى تلقى إليهم دون رقيب ولا حسيب.

ثم اتفقوا على خلع العادل والقبض عليه، وإرْسال بعض الأمراء والكبراء إلى نجم الدين يَحُثونه على الإسراع بدخول مصر، ويطمئنونه بما يرون من الشعب.

وعندما بلغ نجم الدين ما اتفقت عليه سوداء والصالح إسماعيل، خاف أن يُحصَر بينهما، وأخذ يفكر كيف يخرج من هذا المأزق، ولمَّا حدَّث شجر الدر فى ذلك قالت:

«لا أظن شعب مصر يسكت على العادل وعبثه، وقد حدثتنى يا مولاى طويلاً عن هذا الشعب العظيم وخصائصه الجليلة، وكيف أنه يصبر ما يصبر لكنه لا يسكت عن حقه، ويهدأ ويهدأ ولكنه لا يستكين[١] لغاصب، ولا يَذِل لمعتدٍ».

(١) يخضع.

ولم يطل بهما الحديث فقد جاء الأمراء الذين أرسلوا إلى نجم الدين يستأذنون عليه، ومن بعدهم أبو بكر القماش، جاء يُخْبره بعزم الشعب على خلع العادل والقبض عليه، فَسُرِّىَ عن نجم الدين وزال همه، وجعل يستمع إليهم مشرقَ الوجه.

وبعد غَدٍ كان نجم الدين يقطع الطريق مُشمِّرًا إلى مصر، ومعه أبو بكر القمَّاش، وأمراء المماليك، وبعض كبار مصر. وداود صاحب الكرك، يفكر فى الثمن الذى يظن أنه سيقبضه حين يبلغ مصر، وهودَج شجر الدر يهتز معلنًا الفرحة التى تملأ الأفئدة، حتى دخل الموكب الرمل بين العريش والعبَّاسة، فقابلتهم وفود مصر مُحيِّيَةً مهنئةً، ولم ينزلوا منزلًا إلا قدم عليهم طائفة من الأمراء ومن الشعب، مستبشرين فرحين، حتى نزلوا «بلْبيس».

وعلى الرِّمال الصَّفراء المنبسِطَةِ هناك، كانت مضارب الجيش المصرى تخفق فوقها الأعلام، أمامها صفوف من الجند، وقفت تستقبل الملك الصالح نجم الدين، طبولها تدق، وهتافها يرتفع إلى عَنان السماء، ونجم الدين وداود يمشيان بينها، حتى بلغا خيمة كبيرة حولها جنودٌ أشداء يحيطون بها فى حذر وانتباه، ومن باب هذه الخيمة رأى نجم الدين أخاه

العادل فى وسطها، مُكَبَّلاً بالأغلال، ذليلاً فاقدَ الحَوْلِ والطَّوْلِ[1]، فَلَوى عنه وَجهه وهو يقول معْتَبرًا[2]: هذا جزاء الظالمين العابثين بأموال الناس ودمائهم وأعراضهم «إن اللَّه لَيُمْلِى للظالم[3] حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه».

ولم يتمهل وألقى أمره بالرحيل إلى القاهرة، فتحرك الجيش، وصهلت الخيول، واهتزت الهوادج، وقلْب نجم الدين يَخفق بالفرح، وقلب شجر الدر يفيض بالحبور، تود لو طار بها الهوْدج وبلغ بها قلعة الجبل، قبل أن تُفْلِت سوداء بنت الفقيه، لتَلْقَى جزاءها.

(١) القدرة.

(٢) متعظًا.

(٣) يملى للظالم: يمهله ويؤخر عقابه.

مناقشة الفصل السابع

-١-

«واتفقوا على أن تشب ثورة عنيفة فى مصر، حين يخرج العادل للقاء نجم الدين، تلجئ العادل إلى العودة سريعًا دون أن يواصل السير، ثم خرجوا يدعون الناس سرًّا إلى ما اتفقوا عليه، ويبصرونهم بما يجب على الشعب أن يصنعه للتخلص من الحكام الجائرين».

(أ) حدد الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

مرادف «الجائرين»: (الظالمين - المغرورين - المتكبرين)

مضاد «يواصل»: (يبطئ - يتوقف - يتقهقر)

جمع «السر»: (الأسرار - السرائر - الأسر)

(ب) ما الهدف من خروج العادل للقاء نجم الدين؟

(جـ) ما شعور جماعة الإصلاح نحو نجاة نجم الدين؟ وعلام اتفقوا؟

(د) بين حكم الشرع فى كل من: الحاكم الجائر، ومن يسكت على جوره.

-٢-

«ثم اتفقوا على خلع العادل والقبض عليه، وإرسال بعض الأمراء والكبراء إلى نجم الدين يحثونه على الإسراع بدخول مصر، ويطمئنونه بما يرون من الشعب.

وعندما بلغ نجم الدين ما اتفقت عليه سوداء والصالح إسماعيل خاف من أن يحصر بينهما، وأخذ يفكر كيف يخرج من هذا المأزق؟».

(أ) املأ الفراغ مما يلى بما هو مطلوب:

■ مفرد «الكبـــــراء»: ....

■ معنى «المــــــأزق»: ....

■ مضاد «خــــلــــع»: ....

(ب) من الذين اتفقوا على خلع العادل؟ وما مبرراتهم فى ذلك؟

(جـ) علام اتفقت سوداء والصالح إسماعيل؟

(د) طمأنت شجر الدر نجم الدين، وهدأت من روعه. وضح ذلك.

-٣-

«داود صاحب الكرك يفكر فى الثمن الذى يظن أنه سيقبضه حين يبلغ مصر، وهودج شجر الدر يهتز معلنًا الفرحة التى تملأ الأفئدة، حتى دخل الموكب الرمل بين العريش والعباسة، فقابلتهم وفود مصر محيِّيَة مهنئة...».

(أ) هات المطلوب لما يلى، وضع ما تأتى به فى جملة مفيدة:

■ مفرد «الأفـئـــدة»: ....

■ مضاد «الفرحـــة»: ....

■ جمع «المـــوكـــب»: ....

(ب) شعب مصر لا يسكت عن حقه، ولا يذل لمعتد. استدل على ذلك.

(جـ) متى تحرك موكب نجم الدين متجهًا إلى مصر؟

(د) صور بأسلوبك عواطف المصريين أثناء استقبال موكب نجم الدين.

-٤-

«ومن باب هذه الخيمة رأى نجم الدين أخاه العادل فى وسطها مكبلاً بالأغلال، ذليلاً فاقد الحول والطول، فلوى

عنه وجهه، وهو يقول معتبرًا: هذا جزاء الظالمين العابثين بأموال الناس ودمائهم وأعراضهم، «إن اللّٰه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته».

(أ) حدد الصواب مما بين الأقواس لما يلى:

■ مرادف «مكبلاً»: (مقيدًا – مهمومًا – حزينًا)

■ مفرد «الأغلال»: (الغلالة – الغل – الغلة)

■ مضاد «الطول»: (الذل – المرض – الضعف)

(ب) قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

بين كيف تحقق مضمون الآية الكريمة على العادل.

(جـ) تمنت شجر الدر أن يطير بها الهودج حتى قلعة الجبل. لماذا؟

(د) اكتب بأسلوبك حوالى خمسة عشر سطرًا حول «طبيعة الشعب المصرى».



(٨) العهد الجديد

ما إن تولى الصالح نجم الدين مقاليد الحكم فى مصر حتى أخذ يفكر فيما يقدمه لمصر التى هوى بها العادل إلى هوة الفقر، ووهدة الحاجة والفساد، ويفكر فيما يصنع بداود وأطماعه، وبعمه الصالح إسماعيل وألاعيبه، كما أمر بإطلاق سراح فخر الدين بن شيخ الشيوخ.

أما شجر الدر فكانت سعادتها بالغة، وقد أقبلت على نجم الدين تهنئه بملك مصر، وبقرب تحقيق الآمال. لكنه قال لها:

– الطريق طويل يا شجر الدر، ولا إخال الأمور تلين بسهولة، فأمامنا ذئاب وثعالب، وهل تظنين تلك السيوف التى ارتفعت لتحيتنا كلها لنا؟!

كثير منها يرتقب، وعديد منها أُرْغِمَ على الخضوع، وغدًا تخرج الأفاعى من جحورها، وتسعى العقارب بالفساد، ومادام العدو فى بلادنا، فلن تَهدأ ولن تَطمئن.

لن تهدأ البلاد يا شجر الدر، إلا إذا أُلْقِى الفرنج فى البحر أو نُثِرت أشلاؤهم على وجه الرمال، ولن تنام الخِيانة إلا إذا

قُطِّعت أيديها الملوثة، والسلطانُ خَلاَّبٌ يا شجر الدر، يتلهف الجاهلون على ما يرون فيه من المظهر البَرَّاق، ولا يدرون ما خلفه من ثقيل الأوزار!

ولست أدرى كيف أَلُفُّ حولى قلوبًا صافِيَةً، أطمئن إليها وأثق بها؟!

ومن أين لى بتلك القلوب؟! وكيف أجدها؟! أود أن أطير إلى الفرنج اليوم قبل الغد، ولن يتهيأَ ذلك بغير القوة الخالصة من دنس الأطماع!

وكانت شجر الدر تترقب الفرصة لتعرِض شيئًا هامًّا تودُّ أن يستمع إليه نجمُ الدين، فوجدت هذه الفرصة قد سَنَحت، فأسرعت قائلة: «نعم يا مولاى، لابد من تلك القلوب النقيَّة التى تدفع السيوف بإيمان وعزم، ولى رأى يا مولاى فى العُثور على تلك القلوب، كنت عَرضْته ونحن فى نابلس، بعدمَا تَخَلَّى عنا بنو أيوب، وتركونا وعادوا إلى دمشق، أتذكره يا مولاى؟».

– قال وهو يهز رأسه مقتنعًا: «رأى صائب يا شجر الدر، وسأبدأ من الغد بتنفيذه، فأشترى مماليك أقوياء أذكياء، أربيهم كما أريد، وأُنشِّئهم كما أشاء، أُربِّيهم على الفضائل، وأعدهم ليوم النِّزال.

– وتقيم لهم يا مولاى قلعة أخرى غير هذه، غير قلعة صلاح الدين، فى مكان أشد تحصينًا، وأكثر بهجةً من هذا المكان الذى يطل على الجبل، قلعة تُعرف باسم نجم الدين، لا يسأم ساكنها منها، تحرسها السُّفن ويحتضنها النيل الفياض، ويبعث بأمواجه القوة والشهامة فى صدور الجنود.

موضع بهيج حصين يا مولاى، وقعت عيناى عليه وأنا أنظر إلى النيل فى وقت الأصيل، فى الجزيرة المقابلة للفُسطاط. فى مكان البستان الشامخ الأشجار، تشمخ أبراج قلعة نجم الدين، وتقف فى وسط الماء كأنها النَّسر المحلق فى الهواء!»

أعجب نجم الدين بهذا الرأى، وزاد وجهه انبساطًا، والتفت إلى شجر الدر، وانثنى إليها قائلاً: مُحارِبةٌ ماهرةٌ، خبيرةٌ بالقِلاع والحُصون والمواقع... !

– وخبيرةٌ بالقلوب يا مولاى!

فزاد نجم الدين انبساطًا، واستطاب الحديث، وقال فى نَشوة: «ثم ماذا يا شجر الدر؟!».

قالت فى حنان: «هل يرى مولاى أن يُرْجِئَ[1] الحديث، وينال قسطًا من الراحة يَمُدُّه أيامًا بعد ذلك العناء؟».

---

(١) يؤجل.

فأسرع قائلاً باهتمام: «ماذا تقولين أيتها الشُّعلة من الذكاء والعزم؟!

وهل يُخْلِد[1] المصلحون إلى الراحة؟! أيامُهم كلها نَصَب، وحياتهم كلها جهاد، ليلهم تفكير ونهارهم تدبير وتنفيذ، معاركهم متلاحقة؛ لأنهم يكافحون الشر، والشر لا ينقطع ولا يهدأ.

أول شيء وقبل كل شيء، أود أن أطمئن على مال الدولة، فهو حياتها وعصبها، ودماؤها التى تمنحها القوة والنماء، وفى الصباح سأسأل الخازن عما بيده منها. لا، لن أنتظر الصباح فهو بعيد!»

ونهض مسرعًا إلى القاعة الفسيحة، ودعا الوزير ومعين الدين بن شيخ الشيوخ ليُقْبلا على عَجَلٍ، فالأمر لا يحتمل الإبطاء، على أن يحضرا معهما السلطان المخلوع (العادل) من محبسه، وبعد قليل وقف الجميع أمام السلطان نجم الدين، وأخذ السلطان يُؤَنِّب العادل على ما أضاع من المال، ويدق كفًّا بكفٍّ، ويصيح قائلاً فى غضب شديد: «ما هذا أيُّها الإنسان الذى لم يَرْعَ حقَّ اللَّه والوطن؟!

(١) يركن.

دينارٌ واحد، كلُّ ما بقى فى الخِزانة من الألوف المؤلفة التى أعدها الكامل للشدائد؟! كيف تصرفت أيها السلطان الطِّفْل؟! ومن أفهمك أن هذا المال مالك أنت؟!

ألم تعلم أيها العابِث أنه مال الشعب، لكل امْرِئ فيه نصيب، ولكل فرد فيه حق؟!

ألم تعلم أن هذا المال لا ينبغى أن ينفق إلا فيما يعود على البلاد بالخير؟

أيكفى هذا الدينار وتلك الدراهم لنفقة الجيش وإعداد السلاح والعُدد، أم لنفقات الإصلاح التى ينبغى أن يُسارع الحاكم بها، أم لغيرها من الأبواب الواسعة؟!

أوردت البلاد موارد الهلاك أيها المخلوق، أنت وأمك سوداء بنت الفقيه! لم ترعيا حقّا ولم تنظرا إلى واجب!»

وفى تلك الأثناء كان الجنود يهاجمون بيوت حاشية العادل، ومنازل أولئك السفهاءِ، الذين حُمِلت إليها الدنانير من خزائن الدولة فى أقفاص، هدايا من السلطان الغافِل، ويسوقونهم بما نهبوا، حتى أوقفوهم أمام نجم الدين وتلك الأموال بين أيديهم، فألقى عليهم نظرة غاضبةً، ثم أمر الوزير برد العادل إلى السجن، وبردِّ تلك الأموال إلى الخزائن، وإلقاء أولئك اللصوص فى ظلمات المحابس، حتى يرى فيهم رأيه.

وبات ليلتَه هادئًا لأنه اطمأن على المال، ولم يَنم وقطع ما بقى من الليل يبحث شئون الدولة مع وزيره، وشجر الدر على علم بما يدُور وما يُدبر.

وأبوبكر القماش لا ينقطع عن نجم الدين، يبلِّغ الأخبار الخفيَّة، وينقل إليه كل ما يدور بين الناس. وذات يوم أقبل عليه وسلم وجلس، ولما سأله نجم الدين عن البِضَاعَة الجديدة، قال باسمًا: «بضاعة مُستَوْرَدةٌ، جاءت مع مولاى، ودخلت مصر فى ركابِه!».

– من يا أبا بكر؟! تعنى داود؟!

– نعم يا مَوْلاى، ومَن حوله من ضارِبى سيوف الحديد وسيوف الأحداق!

فقهقه نجم الدين طويلاً، ثم أرجع البصر إلى أبى بكر وقال باسمًا: «عرفنا سيوف الحديد يا أبا بكر، وهم الأمراء الذين يجتمع بهم داود ويدبر معهم الإثم، فما سيوف الأحداق؟!».

– سوداء بنت الفقيه يا مولاى عنده، فرَّت إليه عندما علمت بأنه يجمع الأعداء، ويلف حوله الساخطين والحاقدين، ويدبر وإياهم للانتقاض.

– هذا سيف من سيوف الأحداق يا أبا بكر، والسيوف الأخرى؟!

– جاريتان من جوارى مولاى؛ ورد المنى ونور الصباح، عند داود، لا تهدآن عن تدبير الشر فى ليل ولا فى نهار!

فصاح نجم الدين مهتزًّا من شدة الغضب، يأمر بالقبض عليهم، وأتبع ذلك صائحًا بالقبض على الأمراء ومن بينهم داود، فأسرعت شجر الدر قائلة بصوت رقيق هادئ: «لا يا مولاى! حتى لا تكون حركة عامة تمكن داود مما يشتهى، فيصطاد فى الماء العكر!».

– وما الرأى يا شجر الدر؟!

– ألاَّ يقبض مولاى على الأمراء، ويبعث إلى داود من يوهِمه بأن مولاى سيقبض عليه، فإذا أحس بذلك انخلع فؤاده، ورحل فى طىِّ الظلام، مسرعًا إلى الكَرَك[١]، وكفانا شره وشر من معه، وحينذاك يفرُغ مولاى إلى الأمراء ويأخذهم واحدًا واحدًا، فنحن لا نزال فى أول الطريق.

(١) الكرَك: اسم لقلعة حصينة جدًّا، فى طرف الشام من نواحى البلقاء، فى جبالها، بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الريف.

مناقشة الفصل الثامن

-١-

«لن تهدأ البلاد يا شجر الدر إلا إذا ألقى الفرنج فى البحر، أو نثرت أشلاؤهم على وجه الرمال، ولن تنام الخيانة إلا إذا قطعت أيديها الملوثة، والسلطان خلاب يا شجر الدر، يتلهف الجاهلون على ما يرون فيه من المظهر البراق، ولا يدرون ما خلفه من ثقيل الأوزار».

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلى:

مرادف «الملوثة»: (الملطخة – الملونة – المخضبة)

مضاد «الخيانة»: (الشهامة – الجراءة – الأمانة)

جمع «وجه»: (جهات – أوجه – وجهاء)

(ب) حدد نجم الدين الوسيلة لعودة الهدوء إلى البلاد. وضح ذلك.

(جـ) فيم فكر نجم الدين بعد أن تولى حكم مصر؟

(د) كيف استطاع نجم الدين تأليف قلوب صافية يطمئن إليها ويعدها ليوم النزال؟

-٢-

«موضع بهيج حصين يا مولاى، وقعت عيناى عليه وأنا أنظر إلى النيل فى وقت الأصيل، فى الجزيرة المقابلة للفسطاط، فى مكان البستان الشامخ الأشجار، تشمخ أبراج قلعة نجم الدين، وتقف فى وسط الماء كأنها النسر المحلق فى الهواء».

(أ) هات ما يلى:

- معنى «حصـــــين»: ....
- مضاد «بهيـــــج»: ....
- جمع «النـــســـر»: ....

(ب) ماذا اقترحت شجر الدر على نجم الدين؟ وكيف قابل اقتراحها هذا؟

(جـ) علل لما يأتى:

- المصلحون لا يركنون إلى الراحة.
- إنشاء قلعة أخرى غير قلعة صلاح الدين.

-٣-

«وفى تلك الأثناء كان الجنود يهاجمون بيوت حاشية العادل، ومنازل أولئك السفهاء الذين حملت إليها الدنانير من خزائن الدولة فى أقفاص، هدايا من السلطان الغافل، ويسوقونهم بما نهبوا، حتى أوقفوهم أمام نجم الدين وتلك الأموال بين أيديهم».

(أ) املأ الفراغ الآتى بما هو مطلوب:

- مفرد «السـفـهـاء»: ....
- معنى «نـهـبـوا»: ....
- مضـاد «الغـافـل»: ....

(ب) ماذا فعل جنود السلطان نجم الدين؟ وما مصير أموال الشعب التى نهبت؟

(جـ) كيف تصرف نجم الدين مع العادل وحاشيته؟

(د) ما علاقة العادل بسوداء بنت الفقيه؟

«قهقه نجم الدين طويلاً، ثم أرجع البصر إلى أبى بكر وقال باسمًا: «عرفنا سيوف الحديد يا أبا بكر، وهم الأمراء الذين يجتمع بهم داود، ويدبر معهم الإثم، فما سيوف الأحداق؟».

سوداء بنت الفقيه يا مولاى عنده، فرت إليه عندما علمت بأنه يجمع الأعداء...».

(أ) ضع الكلمات الآتية فى جمل من عندك توضح معناها:

«الحديد» : ....

«يدبر» : ....

«الإثم» : ....

(ب) بين الهدف من اجتماع داود مع الأمراء.

(جـ) ما المقصود بسيوف الأحداق؟

(د) ما رأى كل من نجم الدين وشجر الدر تجاه داود؟

(هـ) لخص بأسلوبك مضمون الفصل الثامن فى حوالى أربع فقرات.

(٩) الوحـدة طريق النصـر

غَضِب الشعب العربى للفُرقة والانقسام، والخلاف الناشب بين حكامه من الملوك والأمراء، وأخذ ينظر فى حسْرة إلى تلك القوة المُهْدَرة التى يضيعونها فى الحروب بينهم، ويتركون الفرنج يحتلون بلادهم، وتمنى المخلصون من الشعب العربى فى القاهرة ودمشق لو أن حكامه اتحدوا ووجهوا تلك الجهود إلى مُحارَبَةِ العدو.

وقد تكونت من هؤلاء المخلصين جمعيتان سريتان إحداهما بالقاهرة والأخرى بدمشق، وأخذت كل منهما تعمل على بث الكراهية للفِرنج ومَن يلوذ بهم، وعلى توحيد الصفوف، وتعبئة القلوب ليوم الفصل.

وكان من البارزين فى جَمعية القاهرة أبو بكر القَماش، ذلك التاجر المصرى الشهم الذى رَصَد جزءًا كبيرًا من ثَروتِه الواسعة للجهاد فى سبيل اللّه والوطن، وقام بدور كبير فى التهيئة لعودة نجم الدين إلى مصر، كما كان من البارزين فى جمعية دمشق الشيخُ عِزُّالدين بْنُ عبد السلام، العالِم الكبير،

الذى ذاعت صراحته، وإقدامه، وتمسكه بالحق ومواجهة المخطئين بأخطائهم، لا يخاف أحدًا ولا يَخْشَى سوى اللَّه، وكان الاتصال مستَمِرًّا بين هاتين الجمعيتين، وكان أنصارُهما يزيدون يومًا بعد يوم.

ومُنْذُ وَلِى نجم الدين مَقالِيد مصر، وجمعية القاهرة تَجْهَر برأيها، وأنصارُها يتكاثرون.

وكانت شجر الدر على صلة وثيقَة بهذه الجمعية مُنذ كانت بدمشق، وزادت صلتها بها حينَ جاءت إلى مصر، وشجعتها وأمدتها بالمال، كما حظيت هذه الجمعية بتأييد السلطان لهم، ودعمه جهودهم.

ولم تكتف شجر الدر بدعم هذه الجمعية، بل تقربت إلى الشعب بالعَطاء الوافر والهِبَات الكثيرة، ورعاية المحتاجين والعطف على البائسين، لا تَترك مناسبةً إلا وَسَّعَت عليهم، ولا ضائقةً إلا فرَّجتها بما يستعينون به على حياتهم، ولم تنسَ السيدات، فقد وطدت علاقتها بهن، فازددن محبة لها وثناءً عليها.

أما السلطان نجم الدين فقد اجتهد فى إصلاح البلاد، ورد المظالم، وتثبيت قواعد المملكة، وتعمير ما أفسده العادل وحاشيته.

لكنَّ هذه السياسة الرشيدة لم تَرُقْ فى أعين الحاقدين، فعملوا على هدمها، واجتمع إليهم كل حاسدٍ وناقم، ولم يكن السلطان غافلاً عن هؤلاء الحاقدين، فقد كانت له عيونُه الذين يوافونه بكل كبيرة وصغيرة فى البلاد.

فلما تأكد لديه ما يقوم به الأمراء، قَبَض عليهم، وصادر أملاكهم وأموالهم، وقتل عددًا منهم، ومن لم يدركه فرَّ إلى دمشق والتجأ إلى الصَّالح إسماعيل. وخرج داود خائفًا من أن يصنع به ما صنع بالأمراء، وعاد إلى الكرك ومعه ورد المنى ونور الصباح وسوداء بنت الفقيه.

ولما علم الصالح إسماعيل بما صنع السلطان نجم الدين بالأمراء وما يستعدُّ به الجنود والأسلحة والذخائر والسفن الحربية، اشتد فزعه، وبيَّت أمره على مُبادَرة نجم الدين قبل أن يسير إليه، فكاتب الفرنج واتفق معهم على أن ينصروه على نجم الدين.

وأعماه الحقد والخوف، فقدَّم لهم ما أرادوا من البلاد ثمنًا لتلك المعاونة، كما عقد اتفاقًا آخر على مساعدته، مع صاحب حِمص(١) وصاحب حلَب(٢).

(١) مدينة بين دمشق وحلب.

(٢) مدينة بها قلعة عظيمة كانت عاصمة قنسرين.

طار خبر هذا الاتفاق العجيب إلى مصر، فهب أعضاء جمعية القاهرة يستصرخون المسلمين، ويدعونهم إلى الجهاد والتطوُّع بالأنفس والأموال لمحاربة عدو اللَّه الصالح إسماعيل، وزادت شجر الدر من هباتها لهذه الجمعية، فزاد نشاطها، كما هب الأغنياء والموسرون يتبرعون بالأموال الضخمة فى سبيل الجهاد.

أما دمشق فغلت مراجلها من شدة النار المشتعلة فى الصدور، ثم زادها غليانًا إذْن إسماعيل للفرنج بدخولها لشراء السلاح منها، واندفاع أولئك الفرنج إلى ذلك السلاح وأدوات الحرب، يبحثون عنها فى كل مكان، ويشترونها بما يعرض أصحابها من غالى الأثمان، فماجت القلوب فى الصدور، وهُرع الناس إلى العلماء يستفتونهم فى هذه الجريمة، فأفْتَوا بتحريم بيع السلاح للفرنج، وبأن من يبيعه لهم آثم خارج عن الدين، مفارق لِلْمِلَّة والجماعة.

وجهر الشيخ عز الدين بن عبد السلام بفتواه على منبر الجامع الأموى بدمشق، وأعلن أن الملك الذى أباح ذلك خارج عن دين اللَّه، ناشزٌ عن الجماعة، لا يصلح أن يكون ملكًا للمسلمين، ثم قطع الدعاء له فى خطبة الجمعة.

عند ذلك أمر الصالح باعتقاله فلم يبال ابن عبد السلام باعتقاله، وفتح صدره للموت، غير آسفٍ على الحياة، بعدما أدى واجبه نحو دينه ووطنه، لكن أنصاره الكثيرين أخافوا إسماعيل من مَغَبَّة[1] عمله، واضطروه إلى الإفراج عنه، فأخرجه مطرودًا إلى مصر.

ولما أتم إسماعيل تجهيز جيشه اتجه به إلى مصر ومعه أنصاره من الفرنج، والتقى الجيشان جيش مصر وجيش إسماعيل، وكانت المفاجأة أن انحاز كثير من جيش الشام إلى جيش مصر بتدبير من جمعية دمشق، وانقضوا على الفرنج يقتلونهم، ويقتلون من بقى مع إسماعيل حتى كادوا أن يفنوهم جميعًا، واستطاع إسماعيل أن ينجو بنفسه إلى دمشق.

وفرحت مصر بهذا النصر العظيم، وأقبلت شجر الدر تهنئ السلطان نجم الدين فى حُبورٍ قائلة: «دنا الأمل يا مولاى، وعلى يديك ستَتوحد البلاد كما وحدها صلاح الدين، ويُطرد الفرنج منها أو يدفنون فيها، ويُرَدُّ التتار أو يدفنون مع الفرنج».

قال نجم الدين فى سرور: «كنت أود أن أكون مع الجيش يا شجر الدر، أشاهد اندحار العدو وتشتته، وألاحقه وأقضى عليه».

(١) عاقبة.

قالت: «بل تقيم يا مولاى فى مصر، وتبعث بجيشك المظفَّر، فكل سيف يضرب إنما هو سيفك، وَبِيُمْنِكَ[1] يا مولاى يُهزم الأعداء، وميدان الإصلاح فى مصر لا يقل خطرًا عن ميدان السلاح!».

فاقتنع برأيها وأرسل جيوشه تُتْبع انتصارًا بانتصار، فالتقت مرة أخرى بجيش إسماعيل والفرنج، وأعادت الكرة عليهم، إفْنَاءً وتشريدًا وأسرًا، واستمرت أفراح شجر الدر ونجم الدين بالانتصارات، حتى كان الحدث الأليم الذى أصابهما بحزن شديد وتركهما فى هم مقيم؛ وذلك حين مرض ابنهما خليل، ولم تجدِ معه محاولات الأطباء فقضى نحبه.

وبذل نجم الدين جهده فى تخفيف آلام شجر الدر، فقام معها برحلة نيلية لرؤية آثار مصر فى جنوب الوادى.

ثم قاما برحلة إلى أحضان الريف فى شمال البلاد للاستمتاع بهدوئه الشامل وقضوا فيه أيامًا سعيدة.

حتى كانت أمسية من الأمسيات الرقيقة، ملأت قلب السلطان وشجر الدر بفائض الحبور، فإذا بالبريد يقبل مسرعًا، فلما قرأه نجم الدين تغير وجهه، وتعكر مزاجه، وصاح فى غضب

(١) بركتك.

قائلًا: «لن تشرق الشمس حتى أطير إليه، ولن أعود إلا بعدما أنتهى منه!». ثم أعطى الكتاب إلى شجر الدر وهو يقول فى غضب:

– إسماعيل هجم على «حمص»! لا يريد أن ينتهى إلا بنزع فؤاده الذى بين جنبيه! سأُورِدُه مورد الهلاك، هو وسوداء بنت الفقيه وورد المنى ونور الصباح!

ثم خرج بجيشه إلى دمشق.

مناقشة الفصل التاسع

-١-

«وقد تكونت من هؤلاء المخلصين جمعيتان سريتان؛ إحداهما بالقاهرة، والأخرى بدمشق،وأخذت كل منهما تعمل على بث الكراهية للفرنج ومن يلوذ بهم، وعلى توحيد الصفوف، وتعبئة القلوب ليوم الفصل».

(أ) تخير الصحيح مما بين الأقواس لما يلى:

- معنى «أخذت»: (شرعت - فعلت - قامت)
- مضاد «توحيد»: (تضليل - تفريق - تكثير)
- مذكر «إحدى»: (واحد - حادى - أحد)

(ب) ما المبررات التى أدت إلى تكوين جمعيتين سريتين؟

(جـ) تضمنت الفقرة أهم عوامل تحقيق النصر. وضح ذلك.

(د) كان من البارزين فى هاتين الجمعيتين: أبو بكر القماش، والشيخ عز الدين بن عبدالسلام.

اذكر ما تعرفه عن كل منهما.

-٢-

«أما السلطان نجم الدين فقد اجتهد فى إصلاح البلاد، ورد المظالم، وتثبيت قواعد المملكة،وتعمير ما أفسده العادل وحاشيته. لكن هذه السياسة الرشيدة لم ترق فى أعين الحاقدين فعملوا على هدمها، واجتمع إليهم كل حاسد وناقم، ولم يكن السلطان غافلاً عن هؤلاء الحاقدين».

(أ) هات المطلوب، وضع ما تأتى به فى جملة مفيدة:

- مفرد «المظـــالـــم» : ....
- مضاد «تعمـــــير» : ....
- معنى «نـــاقـــم» : ....

(ب) كان نجم الدين نموذجًا طيبًا للحاكم المسئول عن رعيته. وضح ذلك.

(جـ) «رضا الناس غاية لا تدرك». وضح ذلك فى ضوء فهمك للفقرة.

(د) كيف استطاع السلطان كشف هؤلاء الحاقدين؟ وما تصرفه إزاءهم؟

-٣-

«طار هذا الاتفاق العجيب إلى مصر، فهب أعضاء جمعية القاهرة يستصرخون المسلمين، ويدعونهم إلى الجهاد والتطوع بالأنفس والأموال لمحاربة عدو اللَّه الصالح إسماعيل، وزادت شجر الدر من هباتها لهذه الجمعية فزاد نشاطها...».

(أ) املأ الفراغ الآتى بما هو مطلوب:

- معنى «العجيب» : ....
- مضاد «زاد» : ....
- جمع «نشاط» : ....

(ب) من أطراف هذا الاتفاق العجيب؟ ولم عد كذلك؟

(جـ) وقف المخلصون لوطنهم ضد هذا الاتفاق موقفًا مشرفًا.. وضح ذلك.

(د) ازداد غليان صدور أهل دمشق ضد الصالح إسماعيل.. لماذا؟

-٤-

«وفرحت مصر بهذا النصر العظيم، وأقبلت شجر الدر تهنئ السلطان نجم الدين فى حبور قائلة: دنا الأمل يا مولاى، وعلى يديك ستتوحد البلاد كما وحدها صلاح الدين، ويُطرد الفرنج منها أو يدفنون فيها، ويُرد التتار أو يدفنون مع الفرنج».

(أ) تخير الإجابة الصحيحة مما بين الأقواس لما يلى:

- مرادف «حبور»: (نصر - سرور - فوز)
- مضاد «دنا»: (بعد - ذهب - ولى)
- جمع «مولى»: (موالٍ - ولاة - أولياء)

(ب) ما النصر الذى حققته مصر؟ وكيف تحقق؟

(جـ) فى غمرة أفراح نجم الدين وشجر الدر بالانتصارات حدث ما يؤلمهما. وضح ذلك.

(د) علل لما يأتى:

- تكوين جمعيتين سريتين بالقاهرة ودمشق.
- رأى شجر الدر بعدم القبض على الأمراء ومن بينهم داود.

(١٠) أحلام الأشرار

دخل الحاجب على الملك نجم الدين وهو فى مَخدعه بقلعة دمشق، قد بَرَّحَت به العِلَّة[١] وألزمته الفراش، واستأذن لتاجر كبير من تجار جزيرة صقلية [٢]، أبى أن يصرح بما جاء من أجله، ولم يرض إلا بمقابلة الملك نفسه، والإفضاء[٣] إليه بما يريد.

– وماذا يحمل هذا التاجر من البضائع؟

– لا شىء يا مولاى، سوى رسالة من ملك تلك البلاد!

– وما شأن التجار والرسائل الملكية؟!

– لعله يحمل توصية لمولاى فى صفقة يريد أن يعقدها معنا!

– فعقبت شجر الدر قائلة: «ولعله جاء فى أمر خطير غير التجارة، فقد يكون كبيرًا من رجال ذلك الملك، أتى فى زى التجار ليحكم التخفى، ويكون بعيدًا عن مواطن الشبهات».

– قال الملك وقد ارتاحت نفسه لهذا الرأى: «إذن يكون قد جاء لأمر مهم نافع، فليس بيننا وبين ملك صقلية غير المودة

(١) برحت به العلة: أجهدته.

(٢) من جزائر بحر المغرب، مقابلة لإفريقيا.

(٣) يقال: أفضى إليه بالسر إفضاءً، أعلمه به.

والعلاقات الطيبة، وهم يحترمون المعاهدة المعقودة بيننا وبينهم كما نحترمها نحن. أدخلوه». فلما مَثُلَ هذا المبعوث الصقلى بين يديه وحيَّاه، قدم إليه الرسالة، ووقف ينتظر، ونجم الدين يقرأ فى عجب:

– حملة فرنسية ضخمة متجهة إلى مصر، اشترك فيها الكثير من الفرنج الطامعين فى بلادكم، مزودة بالسلاح والرجال والعتاد[١]، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا بنفسه، ومعه زوجته الملكة مرجريت، واثنان من إخوته: «روبرت آرتوا» و«شارل» كونت آنجوا، واثنان من أبناء عمومته، وكثير ممن اشتركوا فى الحملات الفرنجية السابقة، جاءوا يغسلون العار الذى لحقهم من جراء هزائمهم المتكررة فى الحروب التى شنوها عليكم، وما لا يحصى من المتطوعين والطامعين من أنحاء أوربا.

فجعل الملك نجم الدين يَتَمَلْمَلُ فى فراشه والغضب يهزه، وهمَّ بالجلوس فأسندته شجر الدر، وأعاد النظر فى الرسالة، ومضى يقرأ فى عجب:

– «لعب الشيطان برأس لويس، وخُيِّلَ إليه أنه قادر على تحقيق ما أخفق فيه سواه، وهو يتحدث بغرور عن غزو مصر،

(١) ما أعد للحرب من السلاح وغيره.

بعدما كان الاتجاه إلى بيت المقدس لتخليصه من أيديكم، فقد أجمع من معه على أن مصر أحق بالغزو، فهى بموقعها تحمى ظهر العرب ضد الفرنج بفلسطين والشام، وتغذى بمواردها الهائلة جيوش العرب بالرجال والمال، وحدد بعضهم الاتجاه إلى دمياط بالذات، ليضربوا العرب فيها، وينتقموا من طردهم منها من قبل، وهى مع كل ذلك ورقة رابحة، يمكن استخدامها فى المساومة عليها بمدينة القدس، إذا عرض السلطان الصلح، كما عرضه الكامل من قبل، فوق أن الاستيلاء عليها يَمُدُّ البيوت التجارية الأوربية الكبيرة بمساعدة الحملة على النصر؛ لأن لعاب تلك البيوت يسيل عليها.

لويس موقن من أنه إذا فتح مصر، فقد تمكن من مفتاح الشرق كله، فيسهل عليه بعدها فتح القدس، وانتزاع ما بقى من بلاد الشام.

أبحرت الحملة أيها الملك، وقد أحببت أن أُخطركم بها، لتأخذوا حذركم، ونحن معًا على الوفاق واحترام العهد، فقد تعب لويس معى فى نقض اتفاقى معكم والانضمام إليه، ولجأ بعدما استنفد وسائل الخداع إلى التهديد ولكن هيهات!

سلامى واحترامى للسلطان العظيم».

فاض الغضب بنجم الدين وأخذ يهدد الفرنج ويتوعدهم، وشجر الدر شديدة الألم، خوفًا من أن يجتمع الغضب عليه مع العلة، فيزيده مرضًا، لكنه هدأ شيئًا، والتفت إلى الرسول، وحمَّله جزيل الشكر لملكِه الشجاع الأمين الوفى، وأمر له بجائزة كبيرة، وخِلعة غالية، وبعث معه برسالة تقدير للملك، ثم أمر بأن يطيرَ الحمام تَوًّا بالخبر إلى مصر، وأن يُنادَى فى الجنود بالرحيل من الغد إلى دمياط، فخرج الرسول، وبقى هو وشجر الدر يتناجيان:

قالت فى إشفاق وعطف: «كيف يسير مولاى والطريق طويل، وهو فى أعقاب عِلة شَفاه اللَّه منها؟!». فابتسم وقال: «بوركت يا شجر الدر! لم تسألى عن البقاء أو النهوض، بل سألت عن الوسيلة التى أسير بها! ولن يعوقنى الداء مهما عظم!

ولماذا خلق نجم الدين؟! خلق للجهاد فى سبيل اللَّه، أعزُّ أمانيه أن يموت شهيدًا بين الأسنة، فطعم الموت بينها أحلى من طعمه فى الفراش، ولو كان لى جناح لطرت إلى مصر، وسوف نصل قبلهم بإذن اللَّه، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1]. وقد قررت يا شجر الدر أن أحمل

(١) الآية (٨) من سورة الصف.

فى مِحَفَّةٍ[1]. لا تخافى ولا تعجبى، فسوف تكون سريرًا ناعمًا، لا أحس فيه بتعب ولا مشقة، فالإيمان القوى يُذَلِّلُ الصعاب، ويحيل القتاد[2] حريرًا، ويجعل الملح الأجاج[3] عذبًا سلسبيلاً.

لا بد أن أشهد المعركة على رأس جيشى، أدفعه بروحى وعزمى، فروح الجيش من روح قائده!

سأعيش يا شجر الدر حتى أشهد النصر العظيم، وأرى سيفى وهو يَجُزُّ عنق لويس المغرور، وأُلَقِّن الفرنج الدرس الأخير، ولن يحرمنى ربى من ذلك المنظر البهيج».

فتهلل وجه شجر الدر، ولمحه نجم الدين فقال باسمًا: «كنتِ خائفة أن يتخلف نجم الدين حتى يبرأ، نجم الدين وُلِدَ على صَهْوَة جواد، وسيموت حيث ولد!

لا تخافى ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[4]».

ولم يشرق الصباح حتى كان نجم الدين فى مِحَفَّةٍ على الأكتاف، يطوى الطريق مسرعًا مع الجيش المشمر، حتى بلغ مصر، فاتجه إلى أشموم طناح، ليكون قريبًا من دمياط، ومن هناك يدير المعركة ضد العدوان.

(١) المحفة: مركب كالهودج، إلا أنها ليست لها قبة مثله.

(٢) الشوك.

(٣) الشديد الملوحة.

(٤) الآية (٦٤) من سورة يوسف.

مناقشة الفصل العاشر

١- ضع عنوانًا آخر للفصل.

٢- ما الفِكَر التى دار حولها الفصل؟

٣- اقرأ ثم أجب:

«دخل الحاجب على الملك نجم الدين، وهو فى مخدعه بقلعة دمشق، قد برَّحت به العلة وألزمته الفراش، واستأذن لتاجر كبير من تجار جزيرة صقلية، أبى أن يصرح بما جاء من أجله».

(أ) هات المطلوب لما يلى:

- معنى «برحت به العلة»: ....
- مضاد «أبى»: ....
- جمع «الحاجب»: ....

(ب) من أين أتى التاجر؟ وماذا طلب؟

(جـ) بم علل الحاجب مجىء التاجر؟ وبماذا عقبت شجر الدر؟

(د) ما الرأى الذى مال إليه الملك «نجم الدين»؟ ولماذا؟

(هـ) ما مضمون الرسالة التى جاء بها التاجر؟ وما أثرها على الملك نجم الدين؟

٤- اقرأ ثم أجب:

«فجعل الملك نجم الدين يتململ فى فراشه والغضب يهزه وهمَّ بالجلوس فأسندته شجر الدر، وأعاد النظر فى الرسالة ومضى يقرأ فى عجب».

(أ) ضع معنى «يتململ»، ومضاد «مضى»، وجمع «رسالة» فى جمل من عندك.

(ب) ما الذى جعل الملك نجم الدين يتململ فى فراشه والغضب يهزه؟

(جـ) «ومضى يقرأ فى عجب» - بم توحى هذه الجملة؟

(د) بم أمر الملك نجم الدين للرسول؟ وبم رد على ملك صقلية؟

٥- اقرأ ثم أجب:

«لابد أن أشهد المعركة على رأس جيشى، أدفعه بروحى وعزمى، فروح الجيش من روح قائده، سأعيش يا شجر الدر، حتى أشهد النصر العظيم، وأرى سيفى وهو يَجُزُّ عنق لويس المغرور، وألقن الفرنج الدرس الأخير».

(أ) «يجز - روح - الأخير»:

ضع معنى الكلمة الأولى، وجمع الثانية، ومضاد الثالثة فى جمل من عندك.

(ب) بم أمر الملك نجم الدين فى ضوء ما جاءت به الرسالة؟

(جـ) لماذا قرر الملك الخروج مع جنوده رغم شدة علته؟

(د) كيف خرج الملك نجم الدين مع الجيش؟

٦- **قال الملك نجم الدين لشجر الدر: «لا تخافى.. ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾».. بم يوحى استشهاده بهذه الآية الكريمة؟**

٧- **ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يلى وصوِّب الخطأ:**

(أ) الرسالة التى جاء بها التاجر كانت من ملك صقلية. (   )

(ب) كان مضمون الرسالة الاستفسار عن صحة الملك نجم الدين. (   )

(جـ) استقبلت شجر الدر الرسول، وقرأت الرسالة. (   )

(د) الحملة الفرنسية كانت متجهة إلى مصر. (   )

(هـ) عقد الملك نجم الدين صلحًا مع الملك لويس التاسع. (   )

(و) اتجه الملك نجم الدين إلى «أشموم طناح» ليكون قريبًا من دمياط. (   )

(١١) استعداد للقتال

اهتزت القاهرة ومصر لذلك الخبر، وثارت النفوس كلها ثورة عارمة[١]، ونهضت الألسنة بقوة تُعَبِّئُ القلوب للمعركة، وهُرع الناس إلى المساجد، يستمعون إلى خطب الخطباء، تعرض من كتاب اللَّه وأحاديث رسوله آيات الشجاعة والإقدام، والضرب والطعن والنِّزال، والبذل فى اللَّه بالمال والأرواح.

هذا يفسِّر قول اللَّه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢].

وآخر يشرح قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ[٣] خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وفى حلقات أخرى ترتفع الأصوات بالحديث عن غزوات الرسول، وعن بلاء المجاهدين فيها، وعن الشُّهداء وجزائهم،

(١) شديدة.
(٢) الآيتان (٤٥ ، ٤٦) الأنفال.
(٣) أسرعوا إلى الحرب.
(٤) الآية (٤١) التوبة.

ممن وهبوا أنفسهم لربهم، ونالوا ثوابه الجزيل: جنات عالية، قطوفها دانية.

تسمع آذانهم فيها قول ذى الجلال: ﴿هَنِيٓـَٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾[1].

أما المقاهى والمجتمعات الشعبية، فكانت تفيض بأناشيد الحماسة والإقدام، وشُعراء الربابة على مِنَصَّاتِهم يتدفقون بقصص البطولات العربية فى عبارات مؤثرة تثير الدماء فى العروق.

وقد هب الجنود إلى أسلحتهم، وامتلأ جبل يَشْكُرَ[2] بالمجانيق التى تُجرَّب لتُحمَل فى السفن، وبذل الناس ما استطاعوا من المال بسخاء، وذهب كثير منهم إلى الأمير حسام الدين يعرضون عليه أنفسهم، ويرجونه أن يأذن لهم فى لقاء المعتدين، ولا يحرمهم رضوان ربهم وجناته، فيختار منهم من يطيق الحرب، فينضمون إلى الجيش فرحين، ويعود غير القادرين باكين منتحبين.

فلما أقبل الحمام بالرسالة التى تبشر بقدوم السلطان، كان كل شىء معدًّا، ولم تَلْبَث السفن أن أقلعت بالرجال والعدد والمِيرَة[3]، وقد خرج الجميع لتحيتها، رافعى الأصوات بالدعاء

---

(١) الآية (٢٤) الحاقة. (٢) بين القاهرة والفسطاط. (٣) الطعام.

لهـا بالنصـر، واندفع القـادرون سـائرين عـلى أقـدامهم إلى المعركة، والسفن بجانبهم فى النهر يسير بعضها خلف بعض، تنتقل من قرية إلى قرية، بين الهُتاف والتصفيق، والدعوات الصادرة من القلوب المخلصة، تزيد أعداد من بها كلما تقدمت، وتزداد أعداد الراجلين مثلها، حتى غدت سيلين مسرعين: سيل البحر يشق الماء، وسيل البر يتعجل اللقاء.

ولما شاور السلطان شجر الدر فيمن يضطلع بمهمة القيادة، اتفقا على إسنادها إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، فاستقدمه السلطان وقَلَّده هذا الشرف، وتدارس معه الخطة:

– تُحْشَدُ دمياط بالأسلحة والذخيرة والأقوات يا فخرالدين! تَتَحاشَى كلَّ الأخطاء السابقة التى مكنت الفرنج من الصمود بعض الوقت، حتى فلَّ اللَّه عزائمهم، وكسر شوكتهم، وردهم على أعقابهم!

– سمعًا وطاعة يا مولاى! يتم كل شىء بإذن اللَّه على ما يُرام، وما يكفل النصر بعونه تعالى.

– أتعرف يا فخر الدين أن الخطأ فى الغزوة السابقة فى عهد الملك الكامل، هو أننا لم نزوِّد دمياط بالذخيرة والأقوات، التى تُقدرها على الثبات أكثر مما ثبتت؟!

– نعم يا مولاى، ولن يتكرر ذلك الخطأ، فنحن متيقظون لكل شيء، نعى كل التجارب، ونتحاشى كل الأخطاء!

– وتنزل بجيشك على البر الغربى للنيل؛ لتعوق تقدم الفرنج عن الوصول إلى دمياط. أتعى ذلك الدرس الذى تعلمناه؟! «**لايلدغ المؤمن من جُحر مرتين**»، يا فخر الدين.

– نعم يا مولاى، أعى ذلك الدرس جيدًا، ولن يتكرر الخطأ أبدًا، وسيكون كل ما تحب.

وأطرق السلطان بُرهة ونظر إلى فخر الدين من خلف دموعه المترقرقة فى عينيه، ثم قال فى صوت مُتَهَدِّج[١]:

– كنت أود يا فخر الدين أن أقود المعركة بنفسى وألتقى بالفرنسيين، وأتقرب إلى اللَّه برأس لويس، وقد حاولت إقناع الأطباء بالسماح لى بتلك القيادة، فأبوا إلا بعد الشِّفاء! ومن يعلم يا فخر الدين!

أدعو اللَّه أن يمنحنى القوة، ويعيننى حتى أشفى صدرى من أعداء اللَّه، ولكن كيف، وقد بلغ منى المرض أقصاه؟! كيف أركب برجلى المقطوعة التى حكم عليها المرض اللعين بالبتر.

ثم توجه إلى شجر الدر وقال:

– خائفٌ يا شجر الدر!

(١) متقطع فى ارتعاش.

- ومم يا مولاى؟! جيوشك قوية مجهزة مستعدة، وحصون دمياط منيعة، وعُددنا باطشة، والجند المتحمسون طوع إرادتك، وأمراء المماليك رهن إشارتك، والشعب كله من حولك يتقرب إلى اللَّه بماله ودمه، فممَّ تخاف يا مولاى؟!

فأطبق أجفانه لحظة، ثم نظر إليها وقال فى حزن شديد:

- أحس النهاية يا شجر الدر! ولست أخشاها، لكنى أخاف الفرقة والخلاف من بعدى، وما سينشب بين الأمراء ويمزق الوحدة التى تقف سدًّا منيعًا أمام الأعداء، فكل من حولنا يفكر فى الملك كما ترين، وبعد أيام يموت الملك المريض، فمن ترين يصلح لأقيمه هذه الساعة؟

ينبغى ألا نفر من الحقائق، فالموقف لا يحتمل التَّسْوِيف، والوطن أغلى من أن يدعه نجم الدين دون أن يقيم بدله من يقود السفينة فى هذه اللُّجج، فيذهب بوزر إغراقها!

- سوف تكون فى المعركة يا مولاى، يُطير سيفك رقاب الأعداء، فكل يدٍ من جندك يدك، وكل سيف من السيوف سيفك، ولك ثواب بقدر الألوف المشمرة إلى المعركة حُبًّا فيك وانتصارًا لله ودينه!

فمدَّ يده وشد على يد فخر الدين، وهو يقول فى أمل: هذا يوم اللَّه يا فخر الدين!

لا تنظر إلى شىء سوى وجهه، وابعث فى جندك من روحك، وتقدَّمهم إلى الموقف العصيب يسبقوك إليه.

ثم شد على يده مرة أخرى وهو يقول له محذِّرًا:

إيَّاكَ والشائعات وما يذيع المُرجِفُون[1]! اجعل ما تسمع منها دَبْرَ أذنك وتحت قدمك، واعلم أن الفرنج جبناء رعاديد، لم يلتق العرب بهم، إلا نالوا من رءوسهم وأفئدتهم ما يشتهون؛ لأن العرب يدفعون سيوفهم بأيدى الإيمان والحقِّ، وأولئك يدفعون سيوفهم بأيدى العدوان والطمع، ونحن فى بلادنا وعلى أرضنا، وهم لصوص جاءوا يخطفون، فقلوبهم خائفة، ونفوسهم وَجِلَةٌ، والأرض تهتز من تحت أقدامهم، لا تثبت إلا بخيانة أو غدر، فاحذر يا فخر الدين وتيقظ، فعلى موقفك يتقرر المصير!

ثم شد على يده مرة ثالثة وهو يقول داعيًا: وفَّقك اللَّه أيها القائد الشجاع المؤمن، وحقَّق أملنا فيك، وأدام عليك صفحتك

(١) الإرجاف: إذاعة الأخبار السيئة، والمرجفون: الذين يذيعونها.

الناصعة فى سبيل الوطن، فليست هذه أول معركة لك، بل قِمَّة جهادك وبلائك، واللَّه معنا، وكلمة الذين كفروا السفلى وكلمة اللَّه هى العليا.

أقبل رسول الفرنج ومعه رسالة من الملك لويس، فلم يأذن له السلطان وطلب الرسالة، ووقف كاتبه يتلوها عليه قائلاً:

«أما بعد، فليسَ خافيًا عليك ما فتحنا من بلاد الأَندلُس، وأن أهلَ تلك الجزائر يَحْمِلونَ إلينا الأموال والهدايا، وَنَحْن نسوقُهم سَوْقَ البقر، ونقتل منهم الرجال، ونُرَمِّل النِّساء، ونأْسِر البنات والصِّبيان، ونُخْلى منهم الدِّيار. وقد أبدَيت لك ما فيه الكِفَاية، وبَذلت لك النُّصْحَ إلى النِّهاية. فلو حلفتَ لى بكل الأيمان، ما رَدَّنِى ذلك عن الوصول إليك، وقِتالِك فى أعَزِّ البِقاع عليك، وقد عَرَّفْتُك، وحذَّرتك من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأُ السهلَ والجبل، وعَددُهم كعَدد الحَصَى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء.

ونحن نشرح لك ما فيه الكِفَاية، وبذلنا لك غاية النَّصيحة والهِداية، أن تحلف لَنا بعظائِم الأَيْمان، أن تكون لنا نائبًا على مَرِّ الأَزْمانِ، وتُعَجِّلَ لنا ما عندك من مراكب وطَرَايدَ وشَوانٍ، ولا يكون فيك فترةٌ ولا توانٍ، فتكون قلوبنا راضيةً عليك،



السلطان نجم الدين يستمع إلى كاتبه وهو يقرأ عليه رسالة الملك لويس

ولا تسوق البلاء بيدك إليك، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت، وتعود تقول: يا ليت!».

فتلاحقت أنفاس نجم الدين، وهو يصيح بما يستطيع من قوة، يأمر الكاتب أن يعجِّل بالجواب، فغاب الكاتب قليلاً ثم عاد يُقدم ما كتب، والسلطان يرتعِد من شدة الغَضَبِ، ويقول له: «اقرأ علَيَّ! ألم تخاطبه بما يستحق؟!».

فقرأ الكاتب قائلًا:

«بِسْمِ اللَّه الرَّحمن الرحيم، وصَلوات اللَّه على سيدنا محمدٍ وآلِه وصحبه أجمعين. أمَّا بَعْدُ، فقد وصَل كتابك، وأنت تُهدِّد فيه بكثرة جيوشك وعَدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، ما قُتِل منا قِرْنٌ إلا جَدَّدناه، ولا بَغَى علينا باغٍ إلا دَمَّرناه، فلو رأت عيناك أيها المَغْرور حد سيوفنا وعِظم حُروبنا، وفَتْحنا منكم الحصون والسواحل، وَإِخْرَابَنا منكم ديار الأَواخِر والأوائل، لكان لك أن تَعَضَّ على أنامِلك بالندم، ولا بُدَّ أن تزِل بك القدم، في يوم أَوَّله لنا وآخره علَيك، فهناك تَسِيءُ بكَ الظُّنون، وسيعلم الذين ظلموا أَيَّ مُنقَلَبٍ ينقلِبون. إن الباغِي له مصرع، وبغيُك يصرعك، وإلى البلاء يلقيك..». فسُرَّ السلطان بِهذَا الرد، وانطلق به الرسول عائدًا إلى الفرنج.

وما إن بلَغهم الكتاب، حتى طارت منهم الألْبَاب، وفقد لويس الصواب، وأصدر أمره فبدأت المناوشة بين الجيشين، وقلاعُ دمياط مُتَحَفِّزَة، وحصونُها متطلعة، والجنود يترقبون الإشارة بالهجوم على لويس وحملته ليبيدوها، وفخر الدين شديد القلق لتأخر الإذن بالاشتباك، يقول لنفسه فى شك: لِم تأخرت رسائل السلطان؟! أَضَلَّ الحمَامُ، أم وافت السلطان مَنِيَّتُه؟! ومن الذى وَثب على الملك بعده؟!

ألم يعرف أن الحملة قدْ ألقت مراسيها عند دمياط، وأنها بدأت المناوشة وبعدها الهجوم؟!

واشتدت حيرته فيما يصنع، أيَبْقَى ويَلْتَحِم بالفرنج، أم يسيرُ إلى أَشموم طناح، ليرى ما صنع اللَّه بالسلطان، وأين اتَّجَهَت دفَّة الأمور؟ ثم أدَّت له ظنونُه أن السلطان قد مات، وأن المعركة قد دارت بين الأمراء على اقتسام الغنيمة، ولا ينبغى البقاء بجنوده أمام الفرنج بدمياط، وأن مكانًا آخر قد يكون أكثر عونًا على النصر، ولابد أن يشارك فى اختيار السلطان الجديد، القادر على مواجهة هذا الموقف الدقيق، فقرر أن يسرع إلى أشموم طناح.

كان الليل يتقدم، وفخر الدين يتقهقر بجنوده إلى دمياط، عابرًا الجسر، ثم غادرها بمن معه إلى أشموم طناح. وسرى

الخبر إلى دمياط، ففزعت أشد الفزع، وهب النائمون فى ذُعر، وحملوا ما استطاعوا من أمتعتهم، ثم خرجوا هائمين على وجوههم، والرُّضَّع على أكتافهم يصرُخون، والشيوخ والصغار يتعثرون، والمرضى يئنون.

فزع أهل القاهرة لما رأوا وما سمعوا، وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون، وهب حُسام الدين بن الشيخ يهدئ من روعهم، وأسرع الخطباء والعلماء إلى المساجد والمجْتَمعات، يُثبِّتون قلوبهم، ويؤكدون لهم أن العِبرة بالخاتمة لا بالمُقَدِّمة، ويَقُصُّون عليهم من أنباء الغزوات، ما زُلْزِل فيه المسلمون زِلزالاً شديدًا، ثم أتى نصر اللَّه فَهُزِم الأعداء، ودُفع الباطل واندحر الباغون!

ولم يزالوا بهم حتى هَدءوا وأفاقوا، وانقلب خوفهم أمْنًا وقوة، ثم اشتعل حماسة وثورة، ثم انتهى إلى أن يلحق القادرون بإخوانهم المجاهدين.

أما نجم الدين فغضب غضبًا شديدًا، ودعا بفخر الدين ومن كان معه من الأمراء وقدمهم إلى محكمة من العلماء لتحاكمهم بسبب فرارهم من ميدان القتال.

أما الفرنج فقد احتلوا دمياط بعد أن غادرها الجيش وهجرها أهلوها.

مناقشة الفصل الحادى عشر

١- كان للمشاركة الشعبية دور كبير فى الاستعداد للمعركة- وضح ذلك.

٢- من الذى تم اختياره لقيادة الجيش؟ وما الخطة التى تم الاتفاق عليها؟

٣- حدد السلطان عدة أمور لقائد الجيش. اذكر هذه الأمور.

٤- اقرأ ثم أجب:

«ثم توجه إلى شجر الدر وقال: خائف يا شجر الدر! ومم يا مولاى؟! جيوشك قوية مجهزة مستعدة، وحصون دمياط منيعة، وعددنا باطشة، والجند المتحمسون طوع إرادتك، وأمراء المماليك رهن إشارتك، والشعب كله من حولك يتقرب إلى اللـه بماله ودمه، فمم تخاف يا مولاى؟!».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

معنى «منيـعــة»: (قوية - ممسكة - بعيدة)

مفرد «حـصـون»: (حصان - حصن - حصين)

(ب) ماذا كان يود السلطان نجم الدين؟

(جـ) مم كان السلطان خائفًا؟ وماذا كان رد شجر الدر؟

٥- «مد يده وشد على يد فخر الدين ثلاث مرات موصيًا، ومحذرًا، وداعيًا له...».

فبم أوصاه؟ ومم حذره؟ وبم دعا له؟

٦- «أقبل رسول الفرنج ومعه رسالة من الملك لويس، فلم يأذن له السلطان، وطلب الرسالة ووقف كاتبه يتلوها عليه».

(أ) ما مضمون هذه الرسالة؟ وما أثرها على السلطان؟

(ب) بم أمر السلطان كاتبه بعد أن فرغ من قراءة الرسالة؟ وماذا كان الرد؟

(جـ) ما أثر رد السلطان على الملك لويس؟ وكيف تصرف؟

٧- اقرأ ثم أجب:

«فبدأت المناوشة بين الجيشين، وقلاع دمياط متحفزة، وحصونها متطلعة والجنود يترقبون الإشارة بالهجوم على لويس وحملته ليبيدوها، وفخر الدين شديد القلق...».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

■ معنى «متحفـــزة»: (مستعدة - متجمعة - مسرعة)

■ مفرد «قـــــلاع»: (قِلع - قلعة - المقلاع)

■ مضاد «الهجـــوم»: (الانسحاب - النزال - الدفاع)

(ب) لِمَ كان فخر الدين شديد القلق؟

(جـ) كيف تصرف فخر الدين؟ وماذا ترتب على تصرفه؟

(د) ما موقف السلطان نجم الدين من تصرف فخر الدين؟

(هـ) كيف انتهت المعركة؟

٨- ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يلى وصوب الخطأ:

(أ) كانت المقاهى والمجتمعات الشعبية تفيض بأناشيد الحماسة للمعركة. (   )

(ب) اختير السلطان فخر الدين لمهمة قيادة الجيش. (   )

(جـ) اشتبك فخر الدين وجيشه مع الفرنج وانتصروا عليهم. (   )

(د) عقد السلطان نجم الدين صلحًا مع الملك لويس التاسع. (   )

(هـ) احتل الفرنج دمياط بعد أن غادرها الجيش. (   )

(١٢) المنقــذة

رَقَّ الحديث وطاب الكلام، وشعر لويس ومن معه بأن التوفيق حالَفهم، وأنهم سيحققون ذلك الحُلم الفرنجيَّ الطامع فى مصر وثروتها، وفى الشرق وخيراته، ذلك الحلم الذى تحطم مرات على أبواب مصر.

ثم جعلوا يتساءلون عن أحداث المعركة المرتقبة مع العرب وعن شدتها، بعضهم يؤكد أنهم سيلقونهم فى موقعة رَهِيبَةٍ، والآخرون يؤكدون أنهم فروا مذعورين، ولن يقووا على اللِّقاء بعدُ، وسوف يسلِّمون البلاد كما طلب الملك لويس فى كتابه للسلطان، وجعلوا يرقصون وهم يقولون: «دنا بيت المقدس! وسوف نحقق آمالنا».

أما نجم الدين فبلغ المنصورة ودخلها، ونزل بقصرها الكبير الذى شيَّده الملك الكامل على النيل، وأصدر أمره بإصلاح السور المطل على البحر، وستره بالأستار، ونصب المجانيق عليه.

وسَرْعان ما بدأ العمل، وشرعوا فى تجديد الأبنية للسكنى، ونُصِبت الأسواق، ودبَّت الحركة فى المدينة، ثم قدمت الشوانى

المصرية بالرجال والعدد، وأقبل المتَطوِّعون من الشعب من أرجاء البلاد كلها مندفعين من كل جانب فى حماسة وعزم، يبغون الجهاد فى سبيل ربهم.

كان الاستعداد لملاقاة الفرنج قائمًا على قدم وساق، والسلطان نجم الدين فى فراشه، تشتَد العلَّة به يومًا بعد يوم، وشجر الدر بجانبه لا تفارق سريره، مُقَرَّحة الجَفن، تُحِس بخطر الموقف، وتفكر فيما سيكون لو مات الملك فى هذا الظرف الدقيق، وأخذت تحدث نفسها وتقول:

الوطن أبقى من الأشخاص! هذا وقتك يا شجر الدر، فأنقذى البلاد من أعداء اللَّه وأعدائها، وادفعى هؤلاء الذين جاءوا إليها ليَطْمِسُوا دين اللَّه وينهبوها، ولا تدعيها للأطماع تفتِّتها وتُذهب ريحها!

وهبت واقفة، ونظرت فى وجه السلطان، ثم جعلت تطرد جزعها وتُكَفْكِف دموعها، وتقول لنفسها فى شجاعة: «هذه هى النهاية المحتومة، كل امرئٍ يعرفُها ويحاولُ تجاهُلَها فَيَفِرُّ منها فى غَمْرة الحياة، ليزيد نفسه شقاءً يصرِفه عن تذكُّرها!».

ثم أرجعت البصر إلى السلطان، فرأته يُطبق أجفانه، وسمعته يَقول فى همْسٍ:

«لا تجزعِى يا شجر الدر، وانهَضى برسالتك، واحمى قلعة الشرق من الطامعين!».

بدَت لشجر الدر النهاية القريبة للسلطان، فأسرعت بإصدار أوامرها بألاَّ يدخُلَ عليه سوى كبير الأطباء، وأشاعت أن صحته تتحسَّنُ يومًا بعد يوم، ولكنها جزعت حينما انطبقت أجفانه وتلاحقت أنفاسه، واستدعت الطبيب، فأقبل مسرعًا، وفحصه فى الحال، ثم قال فى أسًى:

– قضاء اللَّه يا مولاتى، لا يفيد فيه دواء ولا يرده طبيب! دبرى أمرك فقد انتهى كل شَىْءٍ!

فزادت دموعها انهمارًا ولم تَرفع صوتًا، وعادت تشجِّع نفسها وتقول فى ثبات:

– ما هذا يا شجر الدر؟! الوطن أولَى بكل ذرةٍ من تفكيرك، فادَّخرى حزنك على السلطان حتى تنتهى المعركة بسلام! وكان ذلك فى سنة ٦٤٧هـ ١٢٤٩م.

ترك السلطان الأمر كله لشجر الدر، فلم تتَوان لحظة، وأسرعت بدعوة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ(١)،

(١) كانت شجر الدر قد طلبت العفو عنه من حكم الإعدام؛ لإخلاصه، ولأنه صاحب فضل كبير فى إقامة الدولة، ولأن فراره لم يكن بقصد الخيانة، فضلاً عن أن إعدامه يثير كثيرًا من الحساسية لمنزلته ومكانته، فعفا عنه السلطان.

والطواشِى جمال الدين مُحسن، واستبقت معهما الطبيب، ثم قالت تسألهم فى شجاعة:

– هل مات السلطان؟

فنظر بعضهم إلى بعض فى حَيْرة، بدَّدَتها الملكة قائلةً: «لم يمت السلطان، ولايزال فى فِراشه، تُزايِلُه العلة يومًا بعد يوم، وقد أوشك أن يتماثل للشفاء». ثم عادت تسأل فى جِدٍّ قائلةً:

– «ومَن قائد الجيش؟».

فأعاد بعضهم النظر إلى بعض، واستأنفت تجيب فى عزم قائلةً: «قائد الجيش الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وهو المتقدِّم، والأمر كلُّه بيده»[1].

وكانت قد استقرت على أن تستدعى توران شاه، فمع أنها تعلم بطيشه وأن المُلْك لن يستقيم له، إلا أنها لم ترد أن تدَعَ للفُرقة بابًا حتى تنتهى المعركة، فسألت هؤلاء قائلةً:

– «ومن السلطان؟».

فظلُّوا فى دهشتهم صامتين، واستأنفت هى قائلة:

– «السلطان توران شاه بن السلطان نجم الدين الأيوبىِّ، وسأرسل إليه الساعة، ليقبل من حصن كيفا! إنه السلطان بن السلطان ووارث الملك!».

(١) كان السلطان قد عفا عنه بعد فراره من دمياط.

ولكن هل مات السلطان؟

ولَم يُجيبوا وزادت حَيْرتهم، وهى تقول فى جد: لم يمت السلطان ولا يزال فى فراشه، وقد أوصَى بأن تنقل ولاية العهد إلى ابنه توران شاه!. هكذا ستقولون للناس!

فاجْمَعْ يا فخر الدين الأمراء والجنود، وبلِّغهم تحية السلطان وأوامره، ثم اكتب إلى حسام الدين بن على متوَلِّى القاهرة بهذه الأوامر، ليأخذ العهد لتوران شاه على من عنده من كبار الدولة، ويُدْعَى له على المنابر بعد السلطان. ثم عادت تسألهم قائلة فى جد:

- هل مات السلطان؟

ثم استأنفت تجيب فى شجاعة: «لم يَمُت السلطان، وسيبقى كل شىء على حاله، السِّماط[١]، يُمدُّ كما كان، والطبيب يدخل ويخرج كما لو كان السلطان بقيد الحياة، والأوراق الرسمية تخرج بخطه فيما مضى وفيما سيأتى، لن يتغير توقيعه، فقد أعددت من يُقَلِّد ذلك التوقيع تمام التقليد. لا يشك من يراه فى أنه بيد السلطان.

---

(١) ما يوضع عليه الطعام.

أما السلطان فيُغَسَّل بيد الطبيب وحده، ثم يُحَنَّط ويكفَّن، ويوضع فى صندوق يُلَفُّ لفّا محكمًا، ويرسل فى حراقة إلى قلعة الروضة، لا يعلم أحد ما فيه حتى تنتهى المعركة! ثم التفتت إليهم وقالت فى عزم:

– ألا تحبون السلطان؟!

إن تكريمه فى جهاد الأعداء، لا فى البكاء عليه، ولا فى مشهد يسير فيه الشَّامِتُ والحاقد والمتربِّص، فإذاعة موته الآن تضعف الجنود، وتفرِّق الجماعة، وتقوى ساعد الفرنج، وإذا أحكمنا الأمر، كان ذلك من أكبر عوامل النصر إن شاء اللَّه!

سارت الأمور كما رسمت، لم يتغير شىء فى أحوال القصر، ولا يعرف أحد إلا أن صحة السلطان تتحسَّن يومًا بعد يوم، وقلوب المُتَرَبِّصِين تدق حَزَنًا كلَّما سمعوا اقتراب ذلك الشفاء.

ولما طال الأمر على الناس، جعلوا يتساءلون عن السلطان ومرضه الذى امتد، وبدأ الذين يتطلَّعون إلى السلطة يدُسُّون من يتعرَّفون لهم الحقيقة، والفرنج يَتَشَمَّمون الأخبار، وللحِيطَان آذان.

فما لبث خبر موت السلطان أن تسرب وبلغ الفرنج، فاشتد فرحهم، ودَوَّى صوت قائدهم يعلن التحرك إلى المنصورة.

مناقشة الفصل الثانى عشر

١- من خلال قراءتك للفصل يتضح لك عظمة دور المرأة وحكمتها. وضح ذلك.

٢- اقرأ ثم أجب:

«ثم جعلوا يتساءلون عن أحداث المعركة المرتقبة مع العرب وعن شدتها، بعضهم يؤكد أنهم سيلقونهم فى موقعة رهيبة، والآخرون يؤكدون أنهم فروا مذعورين، ولن يقووا على اللقاء بعد، وسوف يسلِّمون البلاد كما طلب الملك لويس».

(أ) «رهيبة - مذعورين - موقعة».

ضع معنى الكلمة الأولى، ومضاد الثانية، وجمع الثالثة فى جمل من عندك.

(ب) بم كان يحلم الملك لويس ومن معه؟ وهل تحقق الحلم؟

(جـ) ماذا طلب الملك لويس من السلطان نجم الدين فى كتابه؟

(د) بم أمر السلطان نجم الدين بعد أن بلغ المنصورة؟

(هـ) كيف تم الاستعداد لملاقاة الفرنج؟

٣- اقرأ ثم أجب:

«الوطن أبقى من الأشخاص! هذا وقتك يا شجر الدر فأنقذى البلاد من أعداء اللّٰه وأعدائها، وادفعى هؤلاء الذين جاءوا إليها ليطمسوا دين اللّٰه وينهبوها ولا تدعيها للأطماع تفتِّتها وتُذهب ريحها».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

معنى «يطمس»: (يفسد - يمحو - يغير).

مفرد «أطماع»: (مطمع - طماع - طمع).

(ب) مَن قائل هذه العبارة؟ وما مناسبتها؟

(جـ) ما دلالة هذا القول؟

٤- ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يلى وصوب الخطأ:

(أ) اشتد جزع شجر الدر وظلت بجوار السلطان حزينة باكية. (   )

(ب) الاستعداد لملاقاة الفرنج كان قائمًا على قدم وساق والسلطان فى فراشه. (   )

(جـ) أسرعت شجر الدر بإصدار أوامرها بألا يدخل على السلطان سوى كبير الأطباء. (   )

(د) أعلنت شجر الدر موت السلطان وتوليها الحكم. (   )

(هـ) أسرعت شجر الدر بدعوة فخر الدين وإعادته لقيادة الجيش. ( )

٥- اقرأ ثم أجب:

«ثم استأنفت تجيب فى شجاعة: لم يمت السلطان، وسيبقى كل شىء على حاله، السِّماط يُمد كما كان، والطبيب يدخل ويخرج كما لو كان السلطان بقيد الحياة والأوراق الرسمية تخرج بخطه فيما مضى، وفيما سيأتى، لن يتغير توقيعه...».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

- معنى «استأنفت»: (بدأت - أعادت - طلبت).
- جمع «السماط»: (السموط - السمط - المسامط).
- مضاد «الحياة»: (الانتهاء - العجز - الموت).

(ب) وُضعت شجر الدر فى موقفين شديدى الصعوبة - وضحهما.

(جـ) أثبتت شجر الدر حكمة المرأة وحسن تصرفها - بين ذلك.

(د) متى تسرب خبر موت السلطان؟ وما أثره على الفرنج؟

(١٣) المصيـــدة

تناولت مرجريت رسالة الملك لويس، وجعلت تنظر فيها، وابتسامتها تتسع شيئًا فشيئًا، معبرة عما تجد فيها من الأمل:

– «تقدمنا يا عزيزتى من دمياط بهمة، حتى بلغنا فارسكور، بجانبنا شَوَانينا الضخمة، تتهادى فى مياه النيل الجارية، وبعد قتال مرير، انتزعنا هذه المدينة، وأقنعتنا هذه المعركة بأننا كنا واهمين، حين ظننا العرب خائفين، وأن امتلاك بلادهم ميسور لن يكلِّفنا عناءً كبيرًا.

ثم انطلقنا مسرعين إلى المنصورة، وألقينا مراسينا على البر المقابل لها، لا يفصلنا عنها سوى بحر أشموم.

ولو رأيت جنودنا الذين يملئون السهل، وخلفهم المروج الناضرة، لطار بك السرور إلى فرنسا، يريك البَوْن[1] الشَّاسع بينها وبين هذه الديار، حُلْمِنا القديم.

ومن العجب أن العرب لا يريدون أن يُلقوا السلاح ويرفعوا راية التسليم، وهم يرون أعدادنا وحماسنا وقوتنا، ولا نراهم إلا عازمين على القتال، مستعدين له بقلوبهم وصدورهم، غير

(١) الفـرق.

مهتمين بما يرون من قوتنا، وقد احتطنا لهم، وحفرنا الخنادق حولنا، ونصبنا المجانيق الباطشة.

هم أمامنا، نراهم رأى العين، وقد عزمتُ على الالتحام بهم، وإذا سقطت المنصورة، فلن يبقى أمامنا إلى القاهرة عائق يذكر. لا تقلقى يا ملكة الشرق، فسوف نبلغ الهدف، وإن كان الوقت الذى حدَّدْته لدخول القاهرة سيتأخر قليلاً، وسوف ندخلها قبل انقضاء هذا الأسبوع فاستعدى.

الجو جميل فاتن، والهواء لطيف رقيق، والمكان بهيج رائع، ولا يُعكر صفونا غير مآذن المسلمين العالية، وأصواتها التى تنبعث منها قبل طلوع الفجر.

ويزيدنا إقلاقًا ذلك الضجيج المنبعث من مضارب المسلمين ومن المنصورة كلِّها، لأنهم كما يقولون فى شهر لهم يُسمَّى رمضان، يصومون فيه من طلوع الفجر إلى غُروب الشمس، يأكلون ويشربون طوال ليلهم ويغلقون أفواههم مع طلوع الفجر، ثم يُتِمُّون الصيام إلى الليل. وفى الليل يوجعون قلوبنا بآيات القرآن التى يتلونها، لا يفترون ولا يهجعون!. ومن أعجب العجب أنهم مع هذا الجوع الذى فرضوه على أنفسهم طوال يومهم، فهم يقضون النهار كله فى عمل وجد ونشاط وحركة!

نَسِيتُ يا عزيزتى أن أحدِّثك عن تلك المرأة العجيبة التى تقود المعركة، والتى تسمى شجر الدر. شيطانة خُلِقت من حديد، لا تَكِلُّ ولا تَمَلُّ، تضع الخُطط، وتوجِّه المملكة فى جميع شئونها بدقة وإحكام، ولاتزال تُوهم الناس بأن السلطان فى سريره، حىٌّ يتماثل للشفاء.

ستُصْبح بعد قليل جاريتك، أُقَدِّمُهَا لك هدية النصر، تُذِلِّينها وتُذِلِّين بها المسلمات وتَقْدَعِين بها أنوفهُنَّ المتكبرة(١).

لويس سيملك مصر والشرق. انتظرى أخبارًا سارَّة.

فى ذلك الوقت كانت شجر الدر تعمل دائبة الحركة، تُشجِّع الجنود، وتدفع الخطباء إلى القول، وترسل الأخبار إلى البلاد، وتتلقى الأنباء من جوانب المملكة، وتَعِدُ الأبطال بالجوائز السَّنِية، وتدفع الفدائيين إلى العمل.

وبفضل عزمها وثباتها وروحها الوثَّابة، نشط الناس للجهاد، وازدادت فرق الفدائيين، وتحالفوا على الموت فى سبيل اللَّه والوطن، وانطلقوا يسبحون إلى الفرنج، ويهاجمونهم فى أستار الظلام وفى وضح النهار، يخترعون من الحيل ما يخدعونهم به، ثم يتصَيَّدونهم ويعودون بهم إلى مضاربهم، لم يُضَيِّعوا ساعة، ولم يغفُلوا لحظة.

(١) تقدعين بها أُنوفهن: تضربينها بها.

حتى فى يوم عيد الفطر استأنفوا نشاطهم بعد أداء الصلاة، والتحموا مع الفرنج فى معركة حامية، غنموا فيها كثيرًا من الغنائم، وقتلوا كثيرًا من الجنود، من بينهم قائد من كبار القواد، جزع لويسُ لفقده أَيَّما جَزع.

وهى تتلقى البشائر وتُطَيِّرها إلى القاهرة، فتُتْلى فى المساجد والمجتمعات، فتقوِّى القلوب وتهدِّئ النفوس، وتحمِّس من تخلف عن الجهاد، فيسرع بالسير إلى المنصورة لكيلا يفوته ذلك الشَّرف.

وكلما أحرز الأبطال انتصارًا، طار البشير إلى شجر الدر.

– فى السابع من شوَّال، هاجمنا شِنِيَّةً كبيرة، فيها مائتا رجل من الفرنج، بينهم «كونت» كبير وأَسَرْناها!

– فى منتصف شوال، التحمنا بهم فى برِّهم وأسرنا منهم أربعين فارسًا بخيولهم!

– فى آخر شوال، أحرقنا سفينة كبيرة من سفنهم، والتحمنا معهم فى معركة فزنا فيها بنصر كبير!

تتلقى شجر الدر هذه الأخبار، وتبعث بها وبالأسرى إلى القاهرة، أفواجًا تِلْوَ أفواج، فيطاف بهم فى الشوارع والأزقة، ويعلو التكبير وترتفع الأيدى بالشكر لله، والدعاء له أن يتم

نصره ويهزم أعداءه، حتى رأى لويس أنه سيفقد جيشه بعضًا وراء بعض إذا استمر هذا الحال، ورأى أنه لابد من معركة يتلاقى فيها الجيشان.

وجمع قواده ومهندسيه، وجعلوا يتداولون الرأى، واتفقوا على أن يقيموا جسرًا على بحر أشموم يعبرون عليه، وهبوا إلى العمل، يدفعهم الخوف والأمل، حتى أتموا منه بعض أمتار.

وكانت شجر الدر يقظة لما يصنعون، فجمعت القواد والمهندسين، وتدارسوا الموقف، ثم اتفقوا على أن يتم الهجوم على الفرنسيين أثناء إقامتهم الجسر، أولاً بأول وتم تنفيذ الخطة بنجاح، وعجز الفرنسيون عن إقامة الجسر، كما اشتد هجوم الفدائيين عليهم، وأثار الذُّعر فى قلوبهم، ولويس حائر، يصيح قائلاً فى عجب: كيف هذا؟! أليس لهذا البلاء من دواء؟!

وأخيرًا تفتَّقت أذهانهم عن فكرة ظنوها ستحميهم، أن يبنوا بُرجَيْن كبيرين من الخشب، يُحْشَدان بالرجال والقذائف، يُلقون منهما قذائفهم، ويحمون بها العمال الذين يقيمون الجسر. وبدأ العمل، وتحرك الجسر ليمتد إلى الشَّاطئ الآخر.

قالت شجر الدر لقوادها ومهندسيها: ما العمل؟! الجسر يتحرك والبرجان يتحركان معه، ولابد من الإسراع بإيقاف ذلك الخطر! وكان الجواب حاضرًا:

– لا تخافى يا مولاتى، فلن يَصِلوا إلى شىء مما يَبْغُون، سنقذفهم بالنَّار العربية التى لا يعرفونها!

وفى ظلام الليل، والفرنج جادُّون فى إقامة الجسر، وجنودهم يحرسون البُرجين فى حذَر، ولويس يتعجلهم، شقَّت الجوَّ نارٌ مستقيمة مثل الأسطوانات الكبيرة، تجرُّ خلفَها ذيولاً كالحراب الطويلة، تحيل الليل نهارًا، وتَهُزُّ بدويِّها الأرجاء، وتكشف مضارب الفرنج، ثم تنقض عليهم كأنها نُسور جارحة.

فاشتعلت الحرائق فى معسكر لويس وفى البُرجَين، وارتفع لهبها إلى السماء، والمسلمون على الشاطئ يهللون ويكبرون ويدعون، وأشباح الفرنج فى ضوء تلك القذائف تعدو فارَّةً من الموت الأحمر الذى يصبُّه العرب عليها، ثم أقبل البشير إلى شجر الدر يصف الهَلع الذى أصاب الفرنج، والفزع الذى تملَّك لويس، واليأس الذى استولى عليه وعلى جنوده، فباتت مسرورة، تدعو ربَّها أن يتم نصره ويمحق أعداءه.

وقف العمل فى الجسر، وخيَّم السكون على مضارب الفرنج،

واعتكف لويس فى خيمته يفكر، وطال به التفكير، معلقًا أمله بمعجزة تنقذه من براثِن العرب، وجمع القواد، وجعل وإياهم يفكرون فى حل.

وقبل أن يجدوا حلاّ، أقبل أحد الأتباع لاهثا، يُنْبِئُ لويس بأنهم وجدوا رجلاً يدلهم على طريق إلى العرب، فى مقابل مال قليل: مخاضةً فى بحر أشموم يجتازون منها ويفاجئون العرب، ويأخذونهم أخذًا وَبِيلاً!

فصاح لويس غير مصدق:

– أرأيت هذه المخاضة رأى العين؟!

– نعم يا مولاى.

فالتفت لويس إلى أخيه الغَبِىِّ المتسرع «دارتوا» وقال والفرح يهزه:

«تسرع أنت يا «دارتوا» بفرقة الفرسان، وتخترق تلك المخاضة، وتعبر بحر أشموم، وتفاجئ العرب وتشغلهم بالقتال عن الجسر، بينما يَجِدُّ المهندسون والعمال ويتمونه، فنزحف عليه، ونلتقى بك، وندهَم المنصورة، ونفتح الطريق إلى القاهرة.

سار «دارتوا» بفرقته خلف ذلك الخائن الذى باع ذمته

ووطنه بالمال، حتى بلغ المخاضة، ثم اقتحمها وخيوط الفجر تنتثر فى الأفق، وأخذ العرب على غِرَّةٍ، ولم يكونوا يتخيلون أن يصل الفرنج إليهم من الأرض أو من السماء.

ونهض فخر الدين بن الشيخ إلى جواده وقَفَزَ على صهوته، واندفع إلى الفرنج مُعْجَلاً دون أن يُعِد عدته، ليس حوله سوى بعض مماليكه، واقتحم صفوف الأعداء فى بَسالَةٍ، فالتفُّوا حوله، وناوشته سيوفهم من كل جانب، فخرَّ صريعًا، واندفع «دارتُوا» إلى المنصورة حتى بلغ باب قصر السلطان، فصرخت شجر الدر فى المماليك البحرية الذين يحرسون القصر وتلتف به دورهم، فأسرعوا إلى جيادهم، وهى تدفعهم من شُرفة القصر، وتحثهم على الاستماتة لإنقاذ شرف السلطان وزوجته وجواريه، وإنقاذ شرفهم.

فالتهبت حماستهم، واندفعوا كالصواعق إلى الفرنج، يتقدمهم ركن الدين بيبرس البُنْدُقْدَارِى، وقابلوا الأعداء بسيوفهم ورماحهم وصدورهم، والجوارى تصرخن من وراء شجر الدر، فتصرخ لهن الدماء فى عروق الفرسان، فلا يبالون بما أمامهم من سيوف ورماح!

وجه بيبرس هجومه إلى الكونت «دارتوا» وبعث بفرقة أخرى إلى خارج المنصورة لتحصُر المعتدين، وتقطع اتصالهم

بقوات الفرنج، وحمى الطعن والضرب، وطُعِن «دارتوا» طعنة نجلاء، خرَّ على إثرها يتخبط فى دمه، وتمت إبادة من حول «الكونت»، ولاذ الآخرون بالفرار، تاركين أقفيتهم للرماح والسيوف تأكل منها ما تدركه. عائذين بشوارع المنصورة وأزقتها.

وفى داخل المنصورة نشبت مع الفرنج مَلْحَمَة بشريَّة دامية، اشتبكت فيها الأجساد بالأجساد، والسيوف بالسيوف، والرماح بالرماح، وعملت فيها قضبان الحديد والسواطير والسكاكين، وانهمرت على رءوس الفرنج قذائف البيوت من الأسطح والنوافذ، حجارةً وطوبًا وأوعية وسهامًا وقطع أثاث، وما امتدت إليه أيدى هؤلاء المدافعين عن مدينتهم، قد اتخذوا من البيوت حصونًا وقلاعًا.

وكان العرب قد جمعوا قواتهم خارج المدينة، وأسرعوا إلى المعركة الدائرة فى قلبها، واشتركوا فى إبادة الفرنج، حتى ملئوا بجثثهم الشوارع والأزقة، لم يَنجُ منهم سوى خمسةٍ قُيِّض[1] لهم البقاء، ليُخْبِروا الباغين بجزاء البغى والعدوان.

كان عمال الفرنج قد انتهزوا فرصة هذه المعركة، وانشغال العرب بها، فجدوا فى العمل على بناء الجسر، وكادوا يتمونه، فلما بلغهم الخبر الحزين فقدوا عقولهم، وألقوا بأنفسهم فى

(١) أتيح.

الماء، سابحين فى فَرَقٍ[1] إلى الشاطئ الآخر، قد سبقهم لويس وخاض ببعض جيشه، فانقض العربُ عليه، يبيدون رجاله كما أبادوا رجال أخيه، حتى أقبل الليل وحجز بين الفريقين، وأنقذ لويس ومن بقى معه، فركبوا الظَّلام ولاذوا بالفرار.

جلست شجر الدر فى عظمة المنتصر، شاكرة لربها عونه، ونظرت إلى القواد ثم قالت فى سرور: شكرًا لك يا بيبرس، أرضيت مولاى السلطان، وأرضيت الكرامة والبسالة!

ثم التفتت إلى عز الدين أيبك وأقطاى وغيرهما، وأثنت على ما أبدوا من شجاعة وإقدام، وأطالت النظر فى وجه أيبك، كأنها تدبر شيئًا يخصه، ثم سألته قائلة: ومتى نَنتَهِى يا عز الدين من هؤلاء الأشرار؟!

إنهم جُرِحوا جُرحًا بالغًا لا بُرْءَ منه، ولو هاجمناهم وهم يَلْعَقونه لأبدناهم جميعا.

قال بيبرس فى شجاعة: سيوفنا رهن إشارتك، وقوتنا فى يدك، وقد غدت أرضنا كلها قبورًا مفتحة لاستقبال هؤلاء الفرنج، فمرى بما تشائين.

قالت فى سرور وثقة: نحتفل غدًا بالنصر، وبعد غد نضع خطة الهجوم الماحِق إن شاء اللَّه.

---

(١) خوف شديد.

مناقشة الفصل الثالث عشر

١- ما الفِكَر التى دار حولها الفصل؟

٢- ما مضمون الرسالة التى أرسلها الملك لويس إلى مرجريت؟ وما أثرها عليها؟

٣- تعجب الملك لويس فى رسالته من العرب ـ وضح ذلك.

٤- اقرأ ثم أجب:

«نسيت يا عزيزتى أن أحدثك عن تلك المرأة العجيبة التى تقود المعركة والتى تسمى شجر الدر. شيطانة خُلقت من حديد، لا تكلُّ ولا تملُّ، تضع الخطط، وتوجه المملكة فى شئونها بدقة وإحكام، ولاتزال توهم الناس بأن السلطان فى سريره حىٌّ يتماثل للشفاء».

(أ) «لا تكل - الخطط - التوهم».

ضع معنى الكلمة الأولى، ومفرد الثانية، ومضاد الثالثة فى جمل من عندك.

(ب) مَن قائل هذه العبارة؟ ولمن يوجهها؟

(جـ) تحدد العبارة تميز شجر الدر عن غيرها من النساء - وضح ذلك.

(د) كيف كانت شجر الدر تعد الخطط للمعركة؟

٥- اقرأ ثم أجب:

«تتلقى شجر الدر هذه الأخبار، وتبعث بها وبالأسرى إلى القاهرة أفواجًا تلو أفواج، فيطاف بهم فى الشوارع والأزقة، ويعلو التكبير وترتفع الأيدى بالشكر لله، والدعاء له أن يتم نصره ويهزم أعداءه».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

- معنى «تلــو»: (تابعة - خلف - بعض)
- مفرد «الأزقة»: (الزق - الزقاق - الزقزاق)
- مضاد «يعلو»: (ينزل - يسقط - يهبط)

(ب) ما الأخبار التى كانت تتلقاها شجر الدر؟ وماذا كانت تفعل بها؟

(جـ) ماذا رأى لويس فى ذلك الوقت؟ وعلام اتفق مع قواده؟

(د) ما موقف شجر الدر مما صنعه لويس وقواده؟

٦- اقرأ ثم أجب:

«كما اشتد هجوم الفدائيين عليهم، وأثار الذعر فى قلوبهم، ولويس حائر، يصيح قائلاً فى عجب: كيف هذا؟!

أليس لهذا البلاء من دواء؟! وأخيرًا تفتَّقت أذهانهم عن فكرة ظنوها ستحميهم».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

- مرادف «تفتقت»: (تشققت – تكسرت – تفتحت)
- جمع «فكرة»: (أفكار – فكر – مفكرات)
- مضاد «حائر»: (قوى – متحفز – مطمئن)

(ب) لِم كان لويس حائرًا؟ وماذا قال؟

(جـ) ما الفكرة التى تفتقت أذهانهم عنها؟ وكيف ستحميهم؟

(د) «أليس لهذا البلاء من دواء؟»..

أجب عن السؤال بالنفى.



(١٤) النصــــر

عندما بلغ توران شاه مصر، ذهب مسرعًا إلى المنصورة، فأعلنت شجر الدر حينذاك وفاة السلطان، وتولية ابنه توران شاه خلفًا له، ولم تُخْلِ يدها من الأمر، إذ لم يكن له همٌّ سوى شهواته ومتعته.

ولم يهتم بالموقف، وبدأ عمله بسقَطاتٍ أغضبت الأمراء، وملأت القلوب حقدًا عليه، وأرسل إلى شجر الدر يُطالبها بمال أبيه، ويحاسبها على ما أنفقته فى غِلظة وجَفاء، غير مقدر لها مواقفها المجيدة وما بذلت من جهد فى حماية الوطن.

قال الأمراء لشجر الدر فى تَذَمُّر: وما الرأى فى هذا السلطان الذى لا يصلح للمُلك؟! ليس هو الذى يدبر الأمور فى هذا الموقف العصيب! قالت باسمة: أليس الوطن أولى بكل تفكير فى هذا الوقت، وأحقَّ بكل جهد؟! فَلْنَنْسَ كل شىء حتى يتم النصر.

– لكنها إهانات متكررة، وحُمْقٌ لا يُطاق ولا يُسكت عليه. وتصرف يُودِى بنا جميعًا، وإذا كان هذا موقفه منا والمعركة على أشُدها، فماذا ننتظر بعدما تضع الحرب أوزارها؟!

قالت ووجهها ينطق بما فى صدرها من الألم: مدبِّر الليل والنهار يتصرف يا بيبرسُ، والذى مدَّ سيفنا إلى عُنق «دارتوا» قادر أن يريحنا ويُذهبَ عنا الأذى والحزَن!

دعنا من توران شاه اليوم، وخلِّنا فى المعركة، وأخبرنى بما تم فى الخُطة الجديدة.

قال بيبرسُ فى عزم صادق: «انتهينا يا مولاتى من صنع السُّفن، وسنَحملِها مفصَّلة إلى بحر المحلَّة، وهناك يتم تركيبها، ثم تُشْحَن بالرجال والذخيرة، وتقف فى طريق السفن الفرنجية القادمة بالميرة من دمياط، فيموت لويس ومن معه جوعًا، إن ركب رأسه ولم يُسلِّم أو يسرعْ بالفرار».

فسرَّت شجر الدر لما سمعت، وجعلت تُطَيِّب خواطر الأمراء، ليُرجئوا ما فى نفوسهم إلى ما بعدَ المعركة، فخرجوا مُقتنعين برأيها، واندفعوا إلى العمل ليُنهوا الحرب، وبعدها تلتفت سيوفهم إلى رقبة توران شاه.

ثم زادت الأخبار السارة شجر الدر سرورًا، فقد وردت بما يُثلج صدرها ويقوِّى أملها فى النصر:

– أقبلت مراكب الفرنج من دمياط محمَّلة بالزاد والعَتاد، فباغتتها سفُنُنا المُتَربِّصَة لها، فأخذنا مراكبهم الاثنتين

والخمسين أخذةً رابيةً، وقتلنا منهم نحو ألف، وغنمنا كثيرًا من الغنائم.

– وصلت مراكب الفرنج بالميرةِ الكثيرة، فالتقت بها سُفُننا، وقضت عليها جميعها، لم يُفلت واحد من رجالها، وكانت اثنتين وثلاثين مركبًا، منها تِسع شَوَانٍ.

– لويسُ حائر مُتَفَزِّع تدور به الأرض، يعيش فى مجاعة شرسةٍ، يأكلُ هو وجنوده الحشائش والأسماك وجُذور النبات! أصبحوا حيوانات تتقمَّم!

– الجيش الفرنجى مهدَّد بالفناء!. الفزع يشتد فى دمياط، ومن فيها هائمون على وجوههم.

امرأة لويس التاسع جَزِعَةٌ تبكى حَظَّها، وتندبُ زوجها، وتبحث عن طريق للنجاة، لكن المصيدة انطبقت عليها، والشَّرَك أحكم على زوجها وحملَتِها!

ولم يطل الوقت وأقبلت رسلُ لويس ذليلةً تعرض الصلح وترك دمياط، والعودة بما بقى من الجيش، فى مُقابل تسليم بيت المقدس وبلاد الساحل من الشام. فصاح بدر الدين مندوب مصر فى وجه مندوبى الفرنج ساخرًا

– ماذا يعرض لويسُ؟! وكيف يُخَيَّل إليه أننا سنوافق على هذا العرض، أو نُعِيرُه التفاتًا؟!

ألم يعلم إلى اليوم حِرْصَنا على ثالث الحرمين والقبلة الأولى للمسلمين، وما لها فى صدورهم من المكانة العظمى؟! فكيف يُسلمونه؟!

لن نترك شبرًا من أرض الشام، بل يتخلى لنا الفرنج عن كل ما بأيديهم منه، إذا أحبوا أن نفتح قبضتنا، ونطلق لويس المسكين، وسنرضى بهذا الثمن إشفاقًا ورحمة على هذا المغامر، الذى اندفع إلينا فى غير رَوِيَّةٍ ولا تدبر، ولا علمٍ بنا وبسيوفنا ورماحنا!

إنه فى قبضتنا القوية، ولن يفلت منها، وقد وضع نفسه فى أحرج مكان، فلا إلى المنصورة وصل، ولا إلى دمياط عاد، وسوف يُقبَرُ فى هذا المكان الذى اختاره ليكون مثواه الأخير!

كيف ينجو ذلك الباغى من عاقبة طمعه وغروره.

قولوا له: دمياط، والقدس. وبلاد العرب كلُّها وطنٌ واحدٌ، كل جزء فيه كسواه، ولن نفرط فى قُلامة ظُفر منه، فليذق الحِمامَ، وليسكن مصر، لا فى جنَّاتها ونعيمها، بل فى قبورها التى ضمَّت قبله كثيرًا من المعتدين الباغين.

عاد رسل لويس إليه، يصفون له ما رأوا وما سمعوا، من عزم العرب ورفضهم تسليم شبر واحدٍ من أرضهم، فامتلأت

عيناه بالدموع، ومن خلف تلك الدموع التى تقاطرت نظر إلى جنده الذين أضناهم الجوع، وقرأ ما فى أعينهم من السخط والتذمُّر، فخاف العاقبة، وأصدر الأمر.

وبينما كان المسلمون يَبْدَأُونَ عامهم الجديد، فرحين بما أفاء اللَّه عليهم من نصر، وما أنزل بعدوهم من هزيمة، وشجر الدر تضع الخطة لإنهاء المعركة، أقبلت الأنباء العاجلة تَهُزُّ القلوب فرحًا:

– الفرنج ينسحبون إلى دمياط! يتحركون فى سرعة الرياح، مشاة وفرسانًا يجرون ذيول الخيبة، وسفنهم بجانبهم فى النيل، ولم يتركهم جنودنا وطاروا بجيادهم خلفهم يبعثرون مؤخرتهم، وينثرون أشلاءها فى الطريق وبين الحقول، وهم يفرون فى هلع من الموت الذى يلاحقهم، ويطحن من يُدركه منهم، حتى بلغوا فارسكور.

– لحق المسلمون بأولئك الفارين، ونشبت معركة طاحنة، فهجم بيبرس عليهم فى ضراوة، وشق صفوفهم أمام جنوده، ومالوا عليهم ميلة واحدة، وأثخنوهم ضربًا وطعنًا، وسيف لويس جامد لا يجد يدًا تدفعه ولا قلبًا يحركه، وجنوده حوله لا يحسنون ضربة ولا طعنة، فلم يجد المعتدى سوى الفرار،

ملتجئًا إلى قرية مُنْيَة أبى عبد اللَّه، على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط، بين فارسكور وشرمساح.

فر ذلك الجبان بنفسه، تاركًا خلفه ثلاثين ألفًا من الضحايا، يتساقط الطير على جثثهم، وتجهزُ الوحوش على من بقى فيه رمق منهم، ولكن أين يُفلت ذلك الآبقُ؟!

– لاحقنا لويس ومن تبعه، فلم يجدوا أمام أفواه الموت سوى أن يرفعوا أيديهم فى ذلة، يطلبون الأمان ويستسلمون للأسر!

طربت شجر الدر لما سمعت، والتفتت إلى جندها الأبطال الذين زَفُّوا الأخبار، وقالت بوجه مبسوط: «وماذا صنعتم بملك الفرنج؟!» مسكين، كان يُعدُّ نفسه ليكون ملك مصر والشرق، ويُعِد امرأته لذلك الملك، وتكون شجر الدر جارية لها تذلها وتذل بها المسلمات! فأين ذهب؟!

– فى دار ابن لقمان يا مولاتى، أسيرًا ذليلاً يرسف فى الأغلال، يحرسُه الطواشِى صبيح!

– وأخواه أنجوا وبواتيه؟

– فى القيود يا مولاتى مع الأسرى، يلعنان من فكر ومن أشار ومن دبر، يودان أن يضمهما قبر أخيهما «دارتوا»، الذى لقى حتفه بسيوفنا، ويريحا أنفسهما مما يجدان من المذلة!

– وأين السلطان العزيز توران شاه؟!

– فى فارسكور يا مولاتى، غارق فى لهوه ولَعِبه، يعزل ويولِّى، ويُنَحِّى الأمراء الأبطال، ورجال الدولة المخلصين، ويقدِّم الطائشين من حاشيته اللاهية، ويفرِّق الإقطاعات بغير حساب، ويتوعدنا بالقتل والإفناء، وقد انتهت المعركة بيننا وبين الفرنج ولم يبق سواه!

ابتسمت شجر الدر ابتسامة عريضة، كانت إيذانًا ببدء العمل، فانصرف الجنود مسرعين إلى فارسكور، واقتحموا على توران شاه برجه الخشبى، وضربه بيبرس بسيفه فقطع أصابعه، ففر إلى أعلى البرج واحتمى به، فلم يصعدوا إليه، وأضرموا النار فى البرج، فلم يجد مفرًّا من الموت إلا أن يلقى بنفسه فى النيل فسبح المماليك إليه، أمامهم أقطاى شاهرًا سيفه، حتى بلغه فضربه ضربةً أطاحت برأسه، وترك جثته تهوى إلى أعماق الماء، ثم عاد إلى الشاطئ وهو يردد فى غضب قائلاً:

– هذا جزاء من لا يحفظون العهد، ولا يقدِّرون العاملين!

جزاء من أعنَّاه، وقدمناه، وملّكناه، ثم استدار علينا بالأذى!

ثم أسرعوا يفكرون فى الملك الجديد، من يكون؟



توران شاه يهم بإلقاء نفسه فى النيل هربًا من النيران

مناقشة الفصل الرابع عشر

١- متى أعلنت شجر الدر وفاة السلطان؟

٢- كيف بدأ «توران شاه» عمله بعد توليه سلطان البلاد؟

٣- ما موقف الأمراء من السلطان الجديد؟ وكيف كان موقف شجر الدر؟

٤- اقرأ ثم أجب:

«سُرَّت شجر الدر لما سمعت، وجعلت تطيِّب خواطر الأمراء، ليرجئوا ما فى نفوسهم إلى ما بعد المعركة، فخرجوا مقتنعين برأيها، واندفعوا إلى العمل ليُنهوا الحرب».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

معنى «يرجئوا»: (يؤجلوا - يصبروا - يتخلفوا)

مفرد «خواطر»: (خاطر - خطر - خطير)

مضاد«مقتنعين»: (متسامحين - موافقين - رافضين)

(ب) ما الذى سمعته شجر الدر فجعلها مسرورة؟

(جـ) بم كانت شجر الدر تطيب خواطر الأمراء؟ ولماذا؟

(د) ما الأخبار السارة التى زادت من سرور شجر الدر؟

٥- ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يلى وصوب الخطأ:

(أ) أقبلت مراكب الفرنج من دمياط محملة بالزاد والعتاد. (   )

(ب) كان لويس مطمئنًّا آمنًا يعيش فى رغد وسعة. (   )

(جـ) الجيش الفرنجى قوى يقف فى دمياط مستعدًّا. (   )

(د) كانت زوجة لويس جزعة تبكى حظها وتندب زوجها. (   )

(هـ) لويس يعرض الصلح وترك دمياط والعودة بما بقى من الجيش. (   )

٦- اقرأ ثم أجب:

«ماذا يعرض لويس؟ وكيف يخيل إليه أننا سنوافق على هذا العرض أو نُعيرُه التفاتا؟! ألم يعلم إلى اليوم حرصنا على ثالث الحرمين والقبلة الأولى للمسلمين، وما لها فى صدورهم من المكانة العظمى؟!».

(أ) تخير الصواب لما يلى مما بين القوسين:

معنى «نعيره»: (نوافقه - نهتم به - نسمعه)

مذكر «العظمى»: (الأعظم - العظيم - العظم)

(ب) من قائل هذه العبارة؟

(جـ) ما العرض الذى عرضه لويس؟ وماذا كان الرد عليه؟

(د) «ألم يعلم إلى اليوم..؟» أجب عن السؤال بالإثبات.

(١٥) صاحبة الستر الرفيع

خلا عرش السلطنة الرسميُّ بقتل توران شاه، فاجتمع الأمراء ورجال الدولة يتشاورون، ولم يطل بهم المجلس، واتفقوا على تولية شجر الدر، وتنصيبها ملكةً لمصر، ولكنهم عادوا يتساءلون قائلين: «وكيف تخرج للناس وتواجههم، وتقول لهم ويقولون لها؟! كانت تُصدر الأوامر فننفذها وهى من خلف حِجابها، فماذا تصنع اليوم؟! هل ترضى بالسُّفور[١] وتُلقى الحجاب، أو تحكم من وراء النِّقاب أو السِّتار؟!

– الأمر جدُّ سهل، لا تلقى الحجاب، ولا تحكم من وراء الستار، بل تقيم واحدًا من الأمراء بينها وبين الناس، يتحدث باسمها ويبلغهم أوامرها، وينفذ ما تريد.

فاستحسنوا هذا الرأى، واتفقوا عليه، وتركوا لها الخِيار، تولى هذا الحجاب من تشاء ممن تثق به وترتاح إليه، فاختارت عزالدين أيبك التركمانى الجاشنكير، ولم تختره لأنه أكبر المماليك وأعظمهم وأشجعهم، بل ليكون فى يدها طوعَ إرادتها، لما رأت فيه من الطاعة ولِين العَرِيكة[٢].

---

(١) الكشف عن الوجه.

(٢) العريكة: الطبيعة، ويقال هو لين العريكة، أى سلس القياد.

وتم الأمر وكتب بذلك إلى أرجاء الدولة، ثم طار الحمام بالكتب، يبشر بالسلطان الجديد، ففرح الناس باستقرار الأمور، وكانوا فى وَجَلٍ[1] من الفرقة والانقسام، شاكرين لشجر الدر سرعتها فى تلافى الشر، وما كان سينجُم إذا تأخر إقامة سلطان جديد.

احتفلت البلاد كلها بهذه الملكة العاقلة، وتبادل الناس التهنئات باليَعْسُوب[2] التى ملأ حبها القلوب، ودوَّت المنابر لصاحبة السِّتر الرفيع والحجاب المنيع، ملكة المسلمين شجر الدر أُمِّ خليل، ونُقِش اسمها على العملة، واجتمعت لها أمور البلاد.

ثم أخذت تفكر فى ملك الفرنج المحبوس فى دار ابن لقمان. مُقيَّدًا مثل السُّراق وقطاع الطريق، وفى أولئك الأسرى الذين تَعِجُّ بهم الحُبوس، وفى دمياط ومن بها من الفرنج، وتُعِد العُدة لمهاجمتهم والقضاء عليهم.

وطار فكرها إلى الشام، وحلَّق فوق دمشق وحلب، وسِواهُما، يستطلع رأى الأيوبيين فى تولِّيها الملك، وتذكرت ورد المنى

(١) خوف.

(٢) اليعسوب: أمير النحل، والمراد: الملكة شجر الدر.

ونور الصباح، وسوداء بنت الفقيه، مدركة أن هذه العقارب ستتحرك فى هذه الساعة بسُمِّها القاتل، لتثير القلاقل، وتحرِّض بنى أيوب على رفض الخضوع لها، والعمل سريعًا لانتزاع الملك منها.

كما جعلت تفكر فيما يكون من خليفة بغداد الذى تتبعه البلاد اسمًا، وفى خِلعته التى لا يتمُّ السُّلطانُ لأحدٍ إلا بها، ولا يُقِرُّ الناسُ جميعًا بالخضوع لأحدٍ إلا بعدما يُمنحُها.

ازدحمت تلك الخواطر فى رأسها، وجال فكرها يبحث عن حل لهذه المشكلة المعقدة. وفيما هى فى تفكيرها، بلغتها رسالة تأثرت لها، وبدا فى وجهها آثار العطف والرقة والحنان حين قرأتها.

كانت هذه الرسالة من دمياط، بعثتها الملكة مرجريت امرأة لويس، تتوسل فيها إلى صاحبة الستر الرفيع أن ترحم ضعفَها، وتطلق لها زوجها، وتفرض ما تشاء من مال، وتُناجيها بعاطفة المرأة الغريبة التى فقدت الزوج والأهل والوطن، وعاشت فى رعب ينتابها كلما ذَرَّ[١] صباح وأظلم مساء، وتصف

(١) طلع.

لها غرور لويس وتسرُّعَه، وطمعه الذى أغواه ودفعه إلى هذا المأزق، ودفع بها معه.

رَقَّت شجر الدر للدموع المنهمرة التى تفيض على القِرْطاس[1]، وأذنت للفرنج بأن يبعثوا برُسلهم للمفاوضة، مُفضِّلة أن تملأ الخزائن الخاوية بالمال، من فدية لويس وأسراه على أن تقتلهم، قائلة لنفسها: «وماذا تُجدِى تلك الدماء ولو جرت أنهارًا؟! إنهم لم يعودوا شيئًا، وسوف يرحلون بائسين نادمين، فرحين بالنجاة من الموت المحقق». وأوصت مندوبيها بأن يقبلوا الفدية مشروطة بأربعمائة ألف دينار.

رَضِى الفرنج بدفع الفِدية، فرحين بإطلاق سراحهم، ثم عادوا يفكرون!

ليس لديهم ما يدفعونه، فكيف يتصرفون؟!

جعلوا يتوسلون إلى صاحبة الستر الرفيع أن ترحم عجزهم، وتخفف هذه الفدية الثقيلة عنهم، ما دامت قد تعطَّفت وقبلت تكرمًا أن تطلقهم، وعرضوا أن تتفضل بقبول النصف مُعَجَّلاً، والنصف الآخر يؤجَّل حتى يبلغوا عكَّا، بعدما يسلمون دمياط.

(١) الكتاب.

وكم كانت فرحتهم حين رضيت صاحبة الستر الرفيع، وأخذت عليهم المواثيق بالوفاء، وأسرعت الرسل إلى مرجريت بالبشارة، فَكَفْكَفَتْ عبَراتها، ولم تُعَقِّب، ونهضت مسرعة تجمع المال وتفتش عنه فى كل مكان، وتتوسل إلى من حولها أن يضحُّوا بآخر ما يملكون، ليفكوا القيد عن رقابهم، حتى جمعت نصف الفدية، وأرسلته إلى السلطانة بين اليأس والأمل.

ومن الباب الكبير لدار ابن لقمان، إلى الفِناء الفسيح، إلى الطريق، خرج لويس من سجنه يتلفَّت حوله، غيرَ مصدق، يسأل نفسه: أهو فى حُلم أم يقظة؟!

والطواشى صَبيح الحارس ينظر إليه فى سخرية، ثم التقى بأخويه وبالأسرى الذين كادوا يطيرون من الفرح، وتقدموا إلى السفن التى حملتهم إلى معقِلهم الأخير، ثم وقفت تنظر إليهم ضاحكة وهم يجُرُّون أرجلهم متعثرين إلى مراكبهم، ناكِسى الرءوس يتقطَّر الأسى من وجوههم، حتى أقلعت، والمصريون يودِّعونهم بالشَّماتة، منشدين فى سخرية، من قول جمال الدِّين بن مطْروح فى لويس الحزين ومن معه:

أَتَيْتَ مِصْـرًا تَبْتَـغِى مُلْكَهَا   تَحْسَبُ أنَّ الزَّمْرَ يَا طَبْلُ رِيحْ

فَقُـلْ لَهُمْ إِنْ أزْمَعُـوا عَـوْدَةً   لأَخْــذِ ثَأْرٍ أَوْ لِفعْـلٍ قَبِيحْ[1]

دَارُ ابْنِ لُقْمَـانٍ عَـلَى حَـالِهـا   وَالْقَيْدُ بَاقٍ والطَّوَاشِى صَبِيحْ

كان ذلك النشيد الساحر يتردد على شاطئ دمياط، وشجر الدر فى قصرها تردد هذا النشيد باسمة، وفكرها سابحٌ فى المشكلات الأخرى التى بدأت تُطِلُّ برءوسِها، وبخاصة من جانب الشام.

(١) أزمعوا: نووا.

مناقشة الفصل الخامس عشر

١- ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة وعلامة (✗) أمام العبارة غير الصحيحة فيما يلى وصوب الخطأ:

(أ) بعثت الملكة مرجريت امرأة لويس رسالة تتوسل فيها إلى شجر الدر. ( )

(ب) رفضت شجر الدر التفاوض مع الفرنج. ( )

(جـ) وافق الفرنج على دفع الفدية مقابل إطلاق سراحهم. ( )

٢- اقرأ ثم أجب:

«احتفلت البلاد كلها بهذه الملكة العاقلة، وتبادل الناس التهنئات باليعسوب التى ملأ حبها القلوب، ودوَّت المنابر لصاحبة الستر الرفيع والحجاب المنيع، ملكة المسلمين شجر الدر أم خليل، ونقش اسمها على العملة...».

(أ) «اليعسوب ـ المنابر ـ الرفيع»

ضع معنى الأولى، ومفرد الثانية، ومضاد الثالثة فى جمل من عندك.

(ب) وُصفت شجر الدر بالملكة العاقلة ـ وضح ذلك فى ضوء مواقفها.

(جـ) كيف انتهى حكم السلطان توران شاه؟

(د) من الذى اختارته شجر الدر خلفًا لتوران شاه؟ ولماذا؟

(هـ) فيم أخذت تفكر شجر الدر بعد ذلك؟

الفهرس

رقم الكتاب	مقاس الورق	ورق المتن	ورق الغلاف	ألوان الكتاب	عدد صفحات الكتاب	عدد الملازم	مقاس الكتاب
١٠/٣/٣٣/٢/٥٨/٢٤٤	$\frac{1}{16}$ ٦٣ × ٩٤ سم	٧٠ جرام	١٨٠ جرام كوشيه	المتن والغلاف ٤ لون	١٦٤ صفحة بالغلاف	١٠ ملازم	١٥,٢٥ × ٢٢,٥ سم

طبع بمطابع دار نهضة مصر للنشر بالسادس من أكتوبر

رقم الإيداع : ٢٠٢٣/١٣٩٠١

العام الدراسى: ٢٠٢٣ / ٢٠٢٤م



بسم الله الرحمن الرحيم

قام بفهرسة هذه النسخة ورفعها :

د محمد أحمد محمد عاصم

نسألكم الدعاء